

الارواح المتمرده

بقلم

جبران خليل جبران

طبعت في مطبعة جريدة المهاجر على نفقة صاحبها

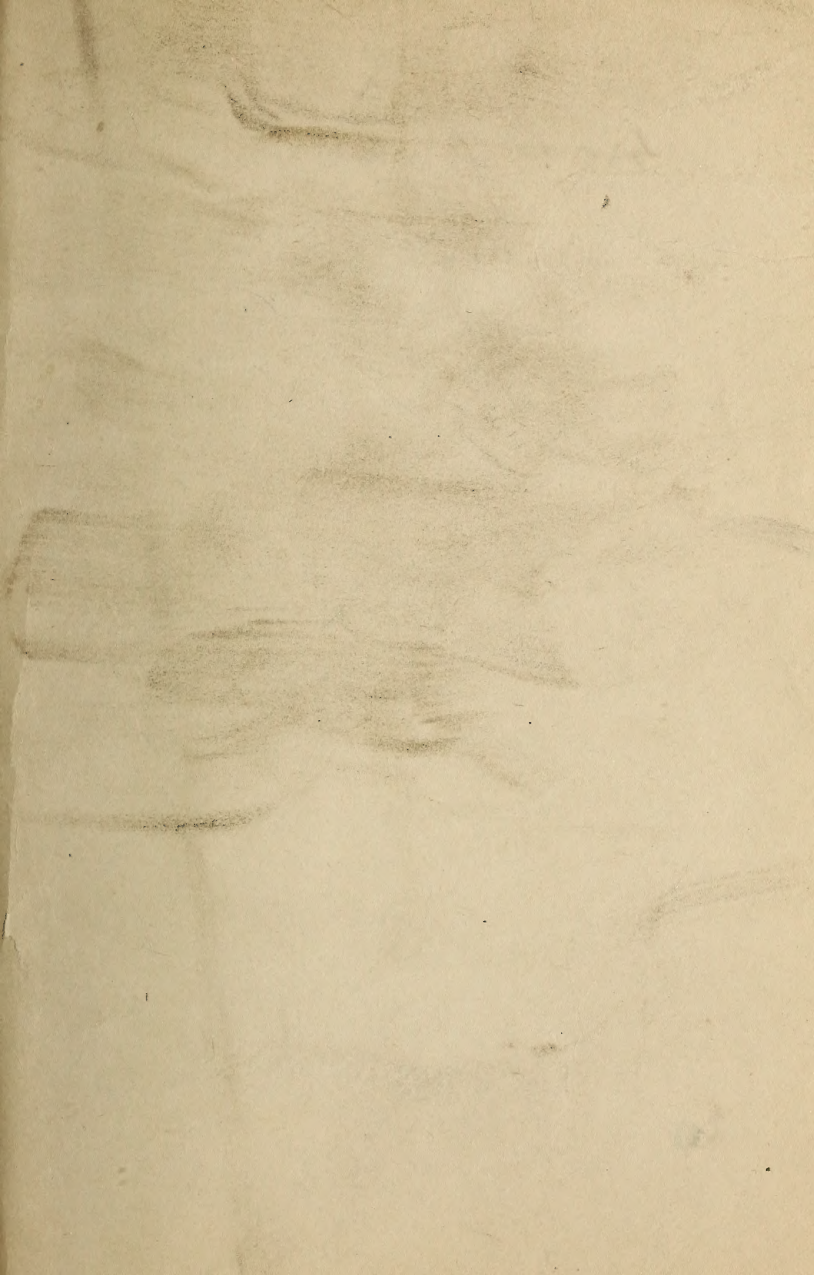
امين الغريب

نيويورك = سنة ١٩٠٨

AL - Mohajer Printing Department

21 WASHINGTON ST

NEW YORK



مقدمة وانتقاد

بقلم صاحب جريدة المهاجر

يقول لنا المثل السائر ان لكل جديد ظلاوة وهو قول ينطبق على كل شيء ما خلا الافكار في المسائل الاجتماعية . فالناس لا يحبون استبدال عادة من عاداتهم بغيرها ولا يقبلون ملاحظة على طريقة من طرق معيشتهم لكنهم في كل الاحيان يجدون انفسهم سالكين رويداً رويداً في السبيل الذي ما احبوه وبموجب الملاحظة التي لم يقبلوها .

من ذلك الحقائق العامة التي كلما شاع امر واحدة جديدة منها ينكرها الناس اولاً ثم تراهم بعد حين اخذوا يعتقدون بها ويستعملونها . ومن ذلك الازياء والاخلاق التي يظن كل منا انه تابع فيها اثار اسلافه بكل تدقيق وضبط ويفتخر بكونه محافظاً عليها في حين اننا نعلم ان كل عصر من العصور مستقل عن سواء بعاداته واخلاقه

v89
G4
C

ما هي الافكار الجديدة ؟ كما قام اديب في عصر
وقال قولاً مخالفاً للنظام الجاري يقوم بعض معاصريه
وينكرون عليه كون ذلك القول جديداً . يقولون ان فلاناً
سبقك الى هذا الفكر ولم يستطع اثباته وتأييده . اما عند
كاتب هذه المقدمة فالشيء لا يكون قديماً او جديداً بمجد
ذاته لانه كائن مستقل عن الزمان والمكان لكنه يكون
كذلك بالنظر الى من يسمعه او يراه . ما ليس جديداً
عندك ربما يكون جديداً عندي . وما هو قديم عند كلينا
ربما يكون جديداً عند كثيرين غيرنا

والافكار الجديدة هي قسم من الاشياء التي تدخل
خلايا الدماغ في روءوس البشر عن طريق العين والاذن
والفم والانف واليد . عن طريق الحواس الخمس . وهناك
تتجسم وتتصور ثم تخرج لابسة الثياب التي اعدتها لها
نفس الانسان من طبيعتها ومواهبها . هذا يرسم لنا رسماً
وذاك يسمعنا نغماً وذلك يكتب لنا كتابة وغيره يسمعنا
كلاماً وهلمّ جراً

وهي ايضاً من الاشياء التي تؤثر على ناظرهم

وسامعيها والشاعرين بها تأثيرا لا يمكن ان يرد او يعارض
فتمت سمعت بفكر جديد لا تطعن بمقاتلته لان ذلك لا
يقتله بل اثره يسير في سبيله والظروف المؤلفة من مجموع
اراء الهیئة الاجتماعية تمكفل بقتله ان كان مضرًا وباحيائه
وتعزيزه ان كان نافعا

ما هو غرض الفلسفة الاجتماعية ؟ غرضها هو البحث
عن الاسباب الاولية التي توول الى سعادة البشر او
تعاستهم . والفلاسفة يختلفون في استقصاء تلك الاسباب
وتصويرها لكن اختلافهم يجيء دائما بالتناجج الحسنة لان
الاشياء تتميز باضدادها . هذا يشخص امراض الناس
المعنوية ويعترض على عادات واخلاق لا ترضيه ويصف
لها ادوية حسبما يقيس ويرى . وذلك يعارضه في الرأي
ويصف ادوية من غير نوع . ولا تكون نتيجة هذا
الاحتكاك والاختبار الا انبذ الباطل والتمسك بالحقوقي
قارى هذه السطور سمع بدون شك في حياته كثيرا
من الشكاوى والتذمرات وربما اشتكى وتذمر غير مرة من
امور مختلفة في هذه الدنيا لا يستنسب وجودها على

انشكل الحاضر . وجبران خليل جبران كاتب هذا
الكتاب هو مثل قارىء هذه السطور انسان قد سمع
ورأى الشكاوى والتذمرات وتأثر ايضاً في دوره واشتكى
وتذمر . فخطرت بباله طرق عديدة لاصلاح ما يتمرمر
الناس منه . ووضع منذ مدة قريبة كتاباً دعاه عرائس
المروج ثم اضاف الان اليه حلقة ثانية في كتاب الاواح
المتمردة .

والقى عليّ مسؤولية النظر في كتابه الثاني كما كلفني
مثل هذا الحمل الثقيل في كتابه الاول على رغم ما اشعر
واعترف به من العجز عن الاتيان بشيء مفيد من موضوع
لا يكتفي بالنظر السطحي اليه بل يقتضي الدرس والتفكير
مدة الليالي الطويلة التي نتج هذا الكتاب عن طول
السهر فيها

جميع التعاليم الجديدة تموت ان كان مصدرها الخيال
والوهم وتحيا اذا كانت منبثقة من سر خفي من اسرار
القلب البشري وكانت صدى العاطفة الوضعية التي اوجدها
الله في النفس من حينما خلق النفس وصورت للناس بكلام

صريح تلك الحاسات التي يشعر بها ويعرف حقيقتها كل بشري لكنه يخاف من فريبه فلا يظهرها لقريبه ومعلوم ان لكل عصر مسائل خاصة به تشغل افكار بنيه . ومسئلة المسائل التي تحوم الفكرة البشرية في أيامنا هذه حولها على غير معرفة منها تتألف من ثلاثة اشياء : البيت (العائلة) والكنيسة (الدين) والمحكمة (الشريعة) وسوف تبقى الفكرة البشرية حائمة حتى تدرك القصد والسر من هذه الاشياء الثلاثة فتبلغ بواسطة ادراكها هذا احضان السعادة . والسعادة هي السبب الاولي الذي نحيا ونموت من اجله

ثم اننا لا نقدر على بلوغ السعادة بواسطة ما يحيط بنا من الصور والاشباح والاصوات والمعائد بل بواسطة العاطفة النفسية الوضعية الكثنة في اعماق الفرد الواحد . فعلى عاطفة الفرد الواحد بنى المؤلف تعاليمه لان متاعب الحياة كلها في هذه الدنيا ناتجة عن اختلاف ذلك الفرد الواحد مع زوجته في البيت . وكاهنه في الكنيسة وشريعته في المحكمة . وفوق ذلك لا ريب في ان استسلام الانسان

الذي وجد حرًا لافكار غيره وعقائد اسلافه قهراً وجبراً
هو اكبر اسباب تعاسته لان الانسان يرضى ويتسلى عن
كل ما ينتابه من يده لكنه قلما يرضى ويتسلى عما ينتابه
من يد غيره

يقول لك الوالد « انت عقوق اذا كنت لا تفعل
مثلي » ويقول لك الكاهن « انت كافر اذا كنت لا تصلي
صلاتي » وتقول لك المحكمة « انت مجرم اذا كنت لا
تتبع شرائعي » فتجيبهم « ولماذا » فيقولون لك « لان
جميع الناس يفعلون ذلك » فتصرخ متوجعاً « ولكن
جميع الناس تعساء وانا اريد ان اكون سعيداً » فيقولون
لك « كن مثل جميع الناس لانك لست افضل منهم »
وهكذا ايها القارىء يظل البشر عائشين واشباح جدودهم
حية في اجسادهم كما سيريك جبران في كتابه هذا

ففي الرواية الاولى وهي السيدة وردة قد استمد
افكاره من اوليات يعترف الناس بها لكنهم عن خوف
من اشباح الجدود لا يقولون انهم سيتبعونها . اوليات
هي تحرير العاطفة الوضعية في نفس الفرد الواحد من

عبودية كل من وما يحيط به . وانقاذ اميال القلب من
آراء الناس غير المبنية على قياس صحيح وظاهر . والاقرار
لكل فرد بحق السعي المتواصل لما فيه سعاده من حيث
لا يضر بالآخرين . فالذي يقرأ السيدة ورده يظن ان
جبران مثلاً يخالف شرائع الله ويحسن للناس حالة المرأة
الخائنة التي طلقت زوجها لتقترن بغيره . يظن كذلك لانه
لا يكن عارفاً من معنى قولنا (المرأة الخائنة) ومن معنى
كلمة (زوجها) الا ما قال له بعض الناس انها تعني

يقول لنا السيد المسيح في انجيله المقدس ١١ ما ازوجه
الله لا يفرقه الانسان “ ونحن بكل احترام ننحني امام هذا
هذا القول المقدس ونسلم به تسليماً مطلقاً لا يقبل الشك
ولا الارتياب . لا نحاول تفريق ما ازوجه الله ولكن كم
من زيجة في هذا العالم الفاسد نعيذ الله وعدله من ان
يكون هو الذي ازوجها . كم من زيجة سعى بها الوالد
الشرير والوالدة الظالمة وعقدتها الكاهن المغشوش او الكاهن
الكاذب بين رجل وامرأة لا يعرف احد قلبيهما القلب
الآخر ولا تتمزج احدي نفسيهما بالنفس التي القيت

غضباً عليها

لا يكفي ان يتلو الكاهن امام الشهود صلاة الاكليل
المعروفة حتى يصير الرجل والامراة زوجاً وزوجة . انما
هنالك في اعماق القلب صلاة يتلوها الله الذي هو
المحبة والمحبة هو — وبدون ان تنلى لا يكون ما ازوجه
الكاهن زواجاً ولا يجوز فقط بل يجب على الانسان
تفريقه . فالسيدة ورده كما سيرى القارىء الكريم لم
يزوجها الله بالرجل الذي طلقته من بعد الزواج وقال الناس
انها خائنة وكافرة . انما ازوجها به الانسان والناس قد
عميت بصائرهم حتى ما عادوا يفرقون بين الله والوالدين
والكاهن وصاروا كلما بدت تعاسة عائلية في موضع يتمنون
لنا كالبيغاء قول الانجيل الذي لا يفهمونه صائحين ، ما
ازوجه الله لا يفرقه انسان

اما حكاية صراخ القبور فهي كلمة صغيرة من ذلك
الحديث الموجه الذي ترويه قراني المحاكم وزوايا السجون
هي خلاصة قصيرة لما يستره المحامون والقضاة من احكامهم
تحت ستور الالفاظ الكثيرة والجمل الطويلة . والقارىء

يتصور بامير هذه الحكاية اما بربر اغا في طرابلس واما
الجزار في عكا واما ابراهيم باشا المصري في سوريا . ولا
يتصور قاضياً من قضاة هذا العصر يقول ما يقوله الامير
ولكن متى تأمل القارئ بنتيجة عدالة هذه الايام ومتى
رأى كثيراً من القتلة وسفاهي الدماء يسرحون ويمرحون
وكثيراً من البائسين المساكين يثنون في ظلمات السجون
متى رأى المجرم الكبير حرّاً والمجرم الصغير مقيداً مسجوناً
عند ذلك يرى ان جبران لم يصور في احكامه الا الحقيقة
الحاضرة في ايامنا هذه انما بثوب غير ثوبها الريائي الشفاف
من الالفاظ . هي حكاية حسنة لكنها في عرف الاكثرين
مخيفة — مخيفة لان الحقيقة التي تتخذ لها من اطمار هذا
العصر وظلمه ثوباً اسود تكون مخيفة ومزعجة للذين
يعيشون في ظل العباوة

اما حكاية مضجع العروس فتروي ان عروستها اكثر
تمرداً من ابطل سائر الروايات لانها كسرت القيود الظالمة
والضالة قبل ان تفرغ يد الجامعة من حبكها . وفضلت
الموت مع حبيبها على البقاء مع الرجل الذي اختاره الكذب

والحُبثُ بعلًا لها ولقد قال لنا احد فضلاء الكهنة لما انتشرت
هذه الرواية في جريدة المهاجر انها خالية من مقاربة
الحقيقة وهذا كما يعلم ارباب هذا الفن من اوجب الصفات
لامثال هذه الروايات . فقلنا له ولماذا . فقال لانني لا
اعتقد بان كاهنًا مسيحيًا يكفل عروسًا قبل ان يثق منها
برغبتها في اقبال بركة الاكليل . فقلنا له عفوا ايها الاب
الفاضل ولكن نحن نعتقد وليس كل ما تقوله كل
عروس في مثل تلك الظروف يعني ضرورة ما يخالج اعماق
قلبها . فهناك العادات والملاحظات وما جرى مجراها
اما حكاية خليل الكافر فهي اشبه شيء بحكاية يوحنا
المجنون في كتاب عرائس المروج . والفرق بينهما هو ان
يوحنا مات مغلوبًا أما خليل فعاش متهمراً على اعدائه
التعساء والمساكين . يوحنا شعر بالذير الثقيل الذي
وضعه الرهبان والكهان على اعناق الفلاحين الفقراء
فصرخ صوتاً صميقاً محزنًا ومات . اما خليل فكان قادرًا
بمحبتته القوية على الوقوف امام الامراء والقضاة ولذلك عاش
مغبوطاً في تلك القرية القريبة من غابة ارز لبنان

صعب على فتى ايامنا هذه ان يصدق كل ما يحكى
عن استبداد بعض الاعيان والكهان في الشعوب التي سبقها
الزمان في سيره فرتعت وهي في العصر العشرين في العصور
الغابرة المظلمة . صعب على الواقف في النور ان يرى
الاشباح المناسبة في اعماق الظلمة . وصعب على المستيقظ
ان يروي حقيقة الاحلام المزعجة . ولكن بين فتیان هذه
الايام شيوخ عاشوا في النصف الاول من القرن التاسع
عشر . فمن يتهم جبران بالمبالغة والغلو عليه ان يسأل
اولئك الفتیان الذين بيض الدهر مفارقهم فيسمع ما يذيب
النفس ويدهمي الفؤاد

وهكذا يرى القارئ اللبيب ان كتاب الارواح المتمردة
الذي يجتمع فيه المجنون بالعاقل والمتمرد بالمطيع والمظلوم
بالظالم والساقطة بالفاضلة والعاشق بالخلي هو الجدار الثاني
من بيت بينيه جبران وكانت عرائس المروج جداره الاول
وعلى جدران هذا البيت يحاول الكاتب الذي جمع ذكاء
لبنان الى اجتهاد الولايات المتحدة وافكار الفيلسوف القاسية
والمرجفة الى الفاظ المصور الرقيقة والموسيقية ان يرسم

عواطف طبقات الناس المتفاوتة من المستعطي الى الامير
ومن الكافر الى القديس ويصور حالات الازمنة والفصول
من ظلام الليل الى ضوء النهار ومن نواح الخريف الى
اغاني الربيع

(امين الغريب)



6

، الى الروح التي عانقت روحي . الى القلب الذي
سكب اسراره في قلبي . الى اليد التي اوقدت شعلة
عواطفي ارفع هذا الكتاب “

(جبران)

الارواج المتردة

بقلم

جبران خليل جبران

طبعت في مطبعة جريدة المهاجر على نفقة صاحبها

امين الغريب

نيو يورك = سنة ١٩٠٨

Al - Mohajer Printing Department
21 WASHINGTON ST NEW YORK



﴿ جبران خليل جبران ﴾



السيدة وردة

١

ما اتعس الرجل الذي يحب صبيةً من بين الصبايا
 ويتخذها رفيقةً لحياته ويهرق على اقدامها عرق جبينه
 ودم قلبه ويضع بين كفيها ثمار اتعابه وغلة اجتهاده ثم
 ينتبه فجأةً فيجد قلبها الذي حاول ابتياعه بجاهدة الايام
 وسهر الليالي قد أُعطي مجاناً لرجل آخر ليمتتع بمكنوناته
 ويسعد بسرائر محبته

وما اتعس المرأة التي تستيقظ من غفلة الشيبية فيجد
 ذاتها في منزل رجل يغمرها بامواله وعطاياه ويسر بلها

بالتكريم والمؤانسة لكنه لا يقدر ان يلامس قلبها
 بشعلة الحب المحيية ولا يستطيع ان يشبع روحها من
 انجرة السماوية التي يسكبها الله من عيني الرجل في قلب
 الامراة

عرفت رشيد بك نعمان منذ حدثتي . وهو رجل
 لبناني الاصل بيروتي المولد والدار متحدر من اسرة قديمة
 غنية موصوفة بالمحافظة على ذكر الاجاد الغابرة فكان
 مولعاً بسرد الحوادث التي تبين نبالة آباءه وجدوده متبعاً
 ببعيسته عقائدهم وثقاليدهم منصرفاً الى تقليدهم عن
 العادات والازياء الغربية المرفقة كاسراب الطيور في
 فضاء الشرق

وكان رشيد بك طيب القلب كريم الاخلاق

كأنه كالكثيرين من سكان سوريا لا ينظر الى ما وراء
الاشياء بل الى الظاهر منها . ولا يصغي الى نعمة نفسه
بل يشغل عواطفه باستماع الاصوات التي يحدثها محيطه .
ويلهي امياله بهرجة المرثيات التي تعمي البصيرة عن
اسرار الحياة وتحول النفس عن ادراك خفايا الكيان الى
ملاحقة الملذات الوقتية . وكان من اولئك الرجال
الذين يتسرعون باظهار محبتهم او مقتهم للناس وللناس
ثم يندمون على تسرعهم بعد فوات الوقت عند ما تصير
الندامة مجلبة للسخرية والاستهزاء بدلاً من العفو والغفران
هذه هي الصفات والاخلاق التي جعلت رشيد بك
نعمان يقترن بالسيدة وردة الهاني قبل ان تضم نفسها نفسه
في ظل المحبة الحقيقية التي تجعل الحياة ازوجية نعيماً

غبت عن بيروت بضعة اعوام ولما رجعت اليها
 ذهبت لزيارة رشيد بك فوجدته ضعيف الجسد مكدم
 اللون ثمائل على سحنته المنقبضة اشباح الاحزان وتبعث
 من عينيه الخزينتين نظرات موجوعة تتكلم بالسكينة عن
 السحاق قلبه وظلمة صدره . وبعيد ان يحدث في محيطه
 ولم اجد اسباب نحوله وانقباضه سأله قائلاً : ما اصابك
 ايها الرجل واين تلك البشاشة التي كانت تبعث كالشعاع
 من وجهك . واين ذهب ذلك السرور الذي كان ملاصقاً
 شديبتك ؟ هل فصل الموت بينك وبين صديق عزيز ؟
 ام سلبتك الليالي السوداء مالا جمعت في الايام البيضاء ؟
 قل لي بحق الصداقة ما هذه الكآبة المعانقة نفسك وهذا
 النحول المالك جسديك

فنظر اليّ نظرة متأسف أرتة الذكرى رسوم ايام

جميلة ثم حجبتها . وبصوت نتموج في مقاطعه معاني
البأس والقنوط قال : « اذا فقد المرء صديقاً عزيزاً
والنفت حوله يجد الاصدقاء الكثيرين فيتصبر ويتعزى
واذا خسر الانسان مالاً وفكر قليلاً رأى النشاط الذي
اتى بالمال سيأتي بمثله فينسى ويسلو . ولكن اذا اضاع
الرجل راحة قلبه فاين يجدها وبم يستعويض عنها ؟ بيد
الموت يده ويصفعك بشدة فتتوجع ولكن لا يمر يوم
وليلة حتى تشعر بلامس اصابع الحياة فتبتسم وتفرح .
يمحيك الدهر على حين غفلة ويمدق بك باعين مستديرة
مخيفة ويقبض على عنقك باظافر محددة ويطرحك بقساوة
على التراب ويدوسك باقدامه الحديدية ويذهب ضاحكاً
ثم لا يلبث ان يعود اليك نادماً مستغفراً فينتشلك باكفه
الحريرية ويغني لك نشيد الامل فيطربك . مصائب

كثيرة ومتاع اليمّة تأتيك مع خيالات الليل وتضمحل
 امامك بجيء الصباح وانت شاعر بعزيمتك متمسك
 بامالك . ولكن اذا كان نصيبك من الوجود طائرًا تجبه
 ونظمه حبات قلبك وتسقيه نور احداقك وتجعل
 ضلوعك له قفصًا ومهجنك عشًا . وبينما انت تنظر الى
 طائر كرت وتتمر ريشه بشعاع نفسك اذا به قد فر من
 بين يديك وطار حتى حلق السحاب ثم هبط نحو قفص
 اخر وما من سبيل الى رجوعه فماذا تفعل اذ ذاك ايها
 الرجل . قل لي ماذا تفعل واين تجد الصبر والسلوان
 وكيف تحيي الامال والاماني ؟ »

لفظ رشيد بك الكلمات الاخيرة بصوتٍ مخنوقٍ
 متوجع ووقف على اقدامه مرتجفًا كقصبة في مهب الريح
 ومد يديه الى الامام كأنه يريد ان يقبض باصابعه المعوجة

عَلَى شَيْءٍ لِيَزْقَهُ إِرْبًا إِرْبًا وَقَدْ تَصَاعَدَ الدَّمُ إِلَى وَجْهِهِ
 وَصَبَغَ بَشْرَتَهُ الْمُتَجَمِّدَةَ بِلَوْنٍ قَاتِمٍ وَكَبُرَتْ عَيْنَاهُ وَجَمَدَتْ
 أَجْفَانُهُ وَاحْدَقَ دَقِيقَةً كَأَنَّهُ رَأَى أَمَامَهُ عَفْرِيَّتًا قَدْ انْبَثَقَ
 مِنَ الْعَدَمِ وَجَاءَ لِيَمِيْتَهُ . ثُمَّ نَظَرَ إِلَيَّ وَقَدْ تَغَيَّرَتْ مَلَاحِمُهُ
 بِسُرْعَةٍ وَتَحَوَّلَ الْغَضَبُ وَالْحَنَقُ فِي جَسَدِهِ الْمَهْزُولِ إِلَى
 التَّوَجُّعِ وَالْأَلَمِ وَقَالَ بَاكِئًا : « هِيَ الْمَرْأَةُ = الْمَرْأَةُ الَّتِي
 انْقَذَتْهَا مِنْ عِبُودِيَةِ الْفَقْرِ وَفَتَحَتْ أَمَامَهَا خِزَانِيَّيَ وَجَعَلَتْهَا
 مَحْسُودَةً بَيْنَ النِّسَاءِ عَلَى الْمَلَابِسِ الْجَمِيلَةِ وَالْحُلِيِّ الثَّمِينَةِ
 وَالْمَرْكَبَاتِ الْغَنِيمَةِ وَالْحَيُولِ الْمُطَهَّمَةِ = الْمَرْأَةُ الَّتِي أَحْبَبَهَا
 قَلْبِي وَسَكَبَ عَلَى أَقْدَامِهَا عَوَاطِفَهُ وَمَالَتَ إِلَيْهَا نَفْسِي فَعَمَّرَتْهَا
 بِالْمَوَاهِبِ وَالْعَطَايَا = الْمَرْأَةُ الَّتِي كُنْتُ لَهَا صَدِيقًا وَدُودًا
 وَرَفِيقًا مُخْلِصًا وَزَوْجًا أَمِينًا قَدْ خَانَتْني وَغَادَرَتْني وَذَهَبَتْ
 إِلَى بَيْتِ رَجُلٍ آخَرَ لِتَعِيشَ مَعَهُ فِي ظِلَالِ الْفَقْرِ وَتَشَارِكُهُ

باكل الخبز المعجون بالعار وشرب الماء الممزوج بالذل
 والعيب = المرأة التي احببتها = الطائر الجميل الذي
 اطعمته حبات قلبي واسقيه نور احداقي وجعلت ضلوعي
 له قفصاً ومهجتي عشاً قد فر من بين يدي وطار الى قفص
 اخر محبوك من قضبان العوسج لياكل فيه الحسك والديدان
 ويشرب من جوانبه السم والعلقم = الملاك الطاهر الذي
 سكنته فردوس محبتي وانعطافي قد نقاب شيطاناً مخيفاً
 اهبط الى الظلمة ليتعذب باثامه ويعذبني بجرمته «
 وسكت الرجل وقد حجب وجهه بكفيه كأنه يريد
 ان يحمي نفسه من نفسه ثم تنهد قائلاً : « هذا كل ما
 اقدر ان اقوله فلا تسألني اكثر من ذلك ولا تجعل لمصیبتی
 صوتاً صارخاً بل دعها مصیبة خرساء لعلها تنمو بالسكينة
 فتميتني وتریحني »

فتمت من مكاني والدموع تراود اجفاني والشفقة
 تسحق قلبي ثم ودعنه ساكتاً لاني لم اجد في الكلام
 معنى يغزي قلبه الجريح ولا في الحكمة شعلة تنير نفسه
 المظلمة

٢

بعد ايامٍ التقيت لأول مرة بالسيدة ورده الهاني
 في بيت حقير محاط بالزهور والاشجار . وكانت قد سمعت
 فظ اسمي في منزل رشيد بك نعمان ذلك الرجل الذي
 داست قلبه وتركته ميتاً بين حوافر الحياة . ولما رأيت
 عينها المنيرتين وسمعت نعمة صوتها الرخيمة قلت في
 ذاتي : « أنقدر هذه المرأة ان تكون شريرة . وهل
 بإمكان هذا الوجه الشفاف ان يستر نفساً شنيعة وقلباً
 مجرمًا ؟ أهذه هي الزوجة الخائنة . أهذه هي المرأة التي
 جنيت عليها مرات عديدة بتصويرها الفكري كثعبان

مخيف محبتي في جسم طائر بديع الشكل ؟ » ولكني
رجعت وهمست في سرّي قائلاً : (اذا اي شيء جعل
ذلك الرجل تعيساً اذا لم يكن هذا الوجه الجميل . او لم
نسمع ونزّ ان المحاسن الظاهرة كانت سبباً لمصائب خفية
هائلة واحزان عميقة اليمّة . او ليس القمر الذي يسكب
في قرائح الشعراء شعاعاً هو القمر الذي يهيج سكينه البحار
بالمد والجزر)

جلستُ وجلست السيدة وردة وكانها قد سمعتني
نمفتكراً فلم ترد ان يطول الصراع بين حيرتي وظنوني
فأسندت رأسها الجميل يديها البيضاء وبصوتٍ بحاكي
نغمة الناي رقةً قالت : « لم التقِ بك قبل الان ايها
الرجل ولكني سمعت ضدى افكارك واحلامك من افواه
الاس فعرفتك شفوفاً على المرأة المظلومة روء وفأضعفها

خبيراً بعماطفها واميالها . من اجل ذلك اريد ان ابسط
 لك قلبي وافتح امامك صدري لتري محباته وتخبّر الناس
 ان شئت بان ورده الهاني لم تكن قط امرأة خائنة
 شريرة كنت في الثامنة عشرة من عمري عندما
 قادني القدر الى رشيد بك نعمان وكان هو اذ ذاك قريباً
 من الاربعين فشغف بي ومال اليّ ميلاً شريفاً كما يقول
 الناس ثم جعلني زوجة له وسيدة في منزله الفخم بين
 خدامه الكثيرين . فألبسني الحرير وزين رأسي وعنقي
 ومعصنيّ بالجواهر والحجارة الكريمة وكان يعرضني
 كتحفة غريبة في منازل اصدقائه ومعارفه وبتسم ابتسامه
 الفوز والانتصار عندما يرمي عيون اترابه ناظرة اليّ
 باعجاب واستحسان ويرفع رأسه تيهياً وافتخاراً اذ يسمع نساء
 اصحابه يتكلمن عني بالاطراء والمودة . لكنه لم يكن يسمع

قول السائل (أهذه زوجة رشيد بك ام هي صبية بناها)
 وقول الاخر (لو تزوج رشيد بك في زمن الشباب لكان
 بكره اكبر سناً من ورده الهاني) ٠٠٠ جرى كل ذلك
 قبل ان تستيقظ حياتي من سبات الحدائث العميق
 وقبل ان توقد الالهة شعلة المحبة في قلبي وقبل ان تنبت
 بزور العواطف والامبال في صدري . نعم جرى كل
 ذلك عندما كنت احسب منتهى السعادة في ثوب جميل
 يزين قامتي ومركبة نخيمة تجرني ورباش ثينة تحيط بي
 ولكن عند ما استيقظت = عندما استيقظت وفتح النور
 اجفاني وشعرت بالأسنة النار المقدسة تلسع اضلعي وتحرقها
 وبالمجاعة الروحية تقبض على نفسي فتوجعها = عند ما
 استيقظت ورأيت اجنحتي تتحرك يمينا وشمالاً وتريد
 النهوض بي الى سماء المحبة ثم ترتجف وترتخي عجزاً بجواب

سلاسل الشريعة التي قيدت جسدي قبل ان اعرف كنه
تلك القيود ومفاد تلك الشريعة = عند ما استيقظت
وشعرت بهذه الاشياء عرفت بان سعادة المرأة ليست بنجند
الرجل وسوء دده ولا بكرمه وحلمه بل هي بالحب الذي يضم
روحها الى روحه ويسكب عواطفها في كبده ويجعلها
ويجعله عضواً واحداً من جسم الحياة وكلمة واحدة على
شفتي الله . عندما بانث هذه الحقيقة الجارحة لبصيرتي
رأيتني في منزل رشيد نعمان مثل لص سارق ياكل خبزه
ثم يستتر بظلام الليل . وعرفت ان كل يوم اصرفه بقربه
هو كذبة هائلة يخطها الرياء باحرف نارية ظاهرة على
جبهتي امام الارض والسماء لانني لم اقدر ان اهبه محبة
قلبي لقاء كرمه ولا ان امنحه انعطاف نفسي ثمناً لخالصه
وصلاحه . وقد حاولت وباطلاً حاولت ان اتعلم محبته

فلم اتعلم لان المحبة هي قوة تبتدع قلوبنا . وقلوبنا لا تقدر
 ان تبتدعها . ثم صليت وتضرعت وباطلاً تضرعت
 وصليت في سكية الليالي امام السماء لتولد في اعماقي
 عاطفة روحية تقربني من اجل الذي اخبرته رفيقاً لي
 فلم تفعل السماء لان المحبة تهبط على ارواحنا بايعاز من
 الله لا بطلب من البشر . وهكذا بقيت عامين كاملين
 في منزل ذلك الرجل احسد عصافير الحقل على حرّيتها
 وبنات جنسي يحسدني على مجي . وكالتكلى الفاقدة
 وحيدها كنت اندب قلبي الذي ولد بالمعرفة واعتل
 بالشرية وكان يموت في كل يوم جوعاً وعطشاً . . . في
 يوم من تلك الايام السوداء نظرت من وراء الظلمة فرأيت
 شعاعاً لطيفاً ينسكب من عيني فتى يسير وحده على سبيل
 الحياة ويعيش منفرداً بين اوراقه وكتبه في هذا اليد

الحقير . فأغمضت عيني كيلا ارى ذلك الشعاع وقلت
 لنفسى (نصيبك يا نفس ظلمة القبر فلا تطمعي بالنور)
 ثم أصغيت فسمعت نعمة علوية تهز جوارحي بعزوبتها
 وتمتلك كليتي بطهرها فأغلقت اذني وقلت (نصيبك يا
 نفس صراخ الهاوية فلا تطمعي بالاغاني) . . . اغمضت
 اجفاني كيلا ارى وغلقت اذني كيلا اسمع . لكن عيني
 ظلتا تريان ذلك الشعاع وهما مطبقتان واذني تسمعان
 تلك النعمة وهما مغلقتان . نخت لاول وهلة خوف فقير
 وجد جوهرة بقرب قصر الامير فلم يجسر ان يلتقطها خوفا
 ولم يقدر ان يتركها لفاخته . وبكى بكاء ظامياً رأى
 ينبوع العذب محاطاً بكواسر الغاب فارتمى على الارض
 مترقباً جازعاً

وسكتت السيدة ورده دقيقة وقد اغمضت عينها

الكبيرتين كأن ذلك الماضي قد انتصب امامها فلم تجسر
 ان تحديق به وجهاً لوجه ثم عادت وقالت : « هوء لاء
 البشر الذين يجيئون من الابدية ويعودون اليها قبل ان
 يذوقوا طعم الحياة الحياة الحقيقية لا يمكنهم ان يدركوا
 كنه اوجاع المرأة عندما تقف نفسها بين رجل تحبه
 بارادة السماء . ورجل تلتصق به بشريعة الارض هي
 مأساة اليمة مكتوبة بدماء الاتى ودموعها يقرأها الرجل
 ضاحكاً لانه لا يفهمها وان فهمها انقلب ضحكه فجوراً
 وقساوة وانزل على رأس المرأة من غضبه ناراً وكبريتاً
 وملاء اذنيها لعناً وتجديفاً . هي رواية موجعة تمثلها الليالي
 السوداء بين ضلوع كل امرأة تجد جسدها مقيداً بمضجع
 رجل عرفته زوجاً قبل ان تعرف ما هي الزيمة . وترى
 روحها مرفرفة حول عنق رجل اخر تحبه بكل ما في

لروح من المحبة وبكل ما في المحبة من الطهر والجمال .
 هو نزاع مخيف قد ابتداءً منذ ظهور الضعف في المرأة والقوة
 في الرجل ولا ينتهي حتى تنقضي ايام عبودية الضعف
 للقوة . هي حرب هائلة بين شرائع الناس الفاسدة وعواطف
 القلب المقدسة قد طرحت بالامس في ساحتها وكادت
 اموت جزعاً واذوب دموعاً . لكنني وقفث ونزعت عني
 جبانة بنات جنسي وحلثت جناحي من رُبط الضعف
 والعواطف . وكنت دنسة ونيئة امام نفسي وامام الله
 والاستسلام وطرت في فضاء الحب والحرية وانا سعيدة
 الان بقرب الرجل الذي خرج وخرجت شعلة واحدة
 من يد الله قبيل ابتداء الدهور ولا توجد قوة في هذا
 العالم تستطيع ان تسلبني سعادتي لانها منبثقة من عناق
 روحين يضمهما التفاهم ويظللها الحب «

ونظرت اليّ السيدة ورده نظرةً معنويةً كأنها تريد
ان تخترق صدري بعينها لترى تأثير كلامها في عواظني
وتسمع صدى صوتها من بين ضلوعي . لكنني بقيت صامتاً
كيلا اوقفها عن الكلام . فقالت وقد قارن صوتها بين
بين مرارة الذكرى وحلاوة الخلاص والحريّة « يقول
لك الناس ان وردده الهاني امرأةً خائنة جحودة قد اتبعث
شهوة قلبها وهجرت الرجل الذي رفعها اليه وجعلها سيدة
في منزله . ويقولون لك هي زانية عاهرة قد اتلفت بمقابضها
القدرة اكليل الزواج المقدس الذي ضفرتة الديانة واتخذت
عوضاً عنه اكليلاً وسنخاً محبوباً من اشواك الجحيم . واقت
عن جسدها ثوب الفضيلة وارتدت بلباس الاثم والعار .
ويقولون لك اكثر من ذلك لان اشباح جدودهم ما
زالت حية في اجسادهم فهم مثل كهوف الاودية الخالية

يرجعون صدى الاصوات ولا يفهمون معناها . هم لا
يعرفون شريعة الله في مخلوقاته ولا يفقهون مفاد الدين
الحقيقي ولا يعلمون متى يكون الانسان خاطئاً او باراً .
بل ينظرون باعينهم الضئيلة الى ظواهر الاعمال ولا
يرون اسرارها فيقضون بالجهل ويدينون بالعمارة ويستوي
امامهم المجرم والبريء والصالح والشرير . فويل لمن
يقضي وويل لمن يدين . . انا كنت زانية وخائنة في
منزل رشيدنعمان لانه جعلني رفيقة مضجعه بحكم العادات
والتقاليد قبل ان تصيرني السماء قرينة له بشريعة الروح
والعواطف . وكنت دنسة ودينئة امام نفسي وامام الله
عندما كنت اشبع جوفي من خيراته ليشبع امياله من
جسدي . اما الان فصرت طاهرة نقية لان ناموس
الحب قد حررني . وصرت شريفة وامينة لاني ابطلت

بيع جسدي بالخبز واياي بالملابس . نعم كت زانية
 ومجربة عندما كان الناس يحسبوني زوجة فاضلة واليوم
 صرت طاهرة وشريفة وهم يحسبوني عاهرة دنسة لانهم
 يحكمون على النفوس من مآتي الاجساد وقيسون الروح
 بمقاييس المادة »

والتفت السيدة ورده نحو النافذة و اشارت بيمنها
 نحو المدينة ورفعت صوتها عن ذي قبل وقالت بلهجة
 الاحقار والاشمئزاز كأنها رأت بين الازقة وعلى السطوح
 وفي الاروقة اشباح المفسد وخيالات الانحطاط « انظر
 الى هذه المنازل الجميلة والقصور الفخيمة العالية حيث
 يسكن الاغنياء والاقوياء من البشر . فين جدرانها
 المكسوة بالحرير المنسوج نقطن الخيانة بجاذب الرياء .
 وتحت مقوفها المطلية بالذهب المدوب يقيم الكذب بقرب

التصنع . انظر وتأمل جيداً بهذه البنايات التي تمثل لك
الهدم والسوء ود السعادة فهي ليست سوى مغاير يخفي
فيها الذل والشقاء والتعاسة . هي قبور مكساة يتوارى
فيها مكر المرأة الضعيفة وراء نخل العيون واحمرار الشفاه
وتحجب في زواياها انانية الرجل وحيوانيته بلعان الفضة
والذهب . هي قصور تتشاع جدرانها تيباً وافتخاراً نحو
العلاء ولو كانت تشعر بانفاس المكاره والغش السائلة عليها
تشفقت وتبعثرت وهبطت الى الحضيض . هي منازل
ينظر اليها القروي الفقير باعين دامعة ولو علم بانه لا يوجد
في قلوب سكانها ذرة من تلك المحبة العذبة التي تملأ صدر
رفيقته لابتسم مستهزئاً وعاد الى حقله مشفقاً
وامسكت السيدة ورده يدي وقادتني الى جانب
النافذة التي كانت تنظر منها نحو تلك المنازل والقصور

وقالت « تعال فاريك خفايا هو لاء الناس الذين لم
ارض ان اكون مثلهم . انظر الى ذلك القصر ذي الاعمدة
الرخامية والجوانح النحاسية والنوافذ البلورية فيه يسكن
رجل غني ورث ماله عن والده البخيل واكتسب اخلاقه
من جوانب الازقة النعمية بالمفاسد وقد تزوج منذ عامين
بامرأة لم يعرف عنها شيئاً سوى ان لوالدها شرفاً موروثاً
ومنزلة رفيعة بين نبلاء البلاد . ولم ينقض شهر العسل
حتى ملها متضجراً وعاد الى مسامرة بنات الهوى وتركها
في هذا القصر مثلما يترك السكير جرة خمر فارغة فبكت
وتوجعت لاول وهلة ثم تصبرت وسلت سلو من عرف
خطأه وعلت بان دموعها هي اثن من ان تهرق على خسارة
رجل مثل زوجها . وهي الان مشغولة عن كل شيء
بمشق فتى جميل الوجه حلوا الحديث تسكب في راحبيه

عواطف قلبها وتملاء جيوبه من ذهب بعلمها الذي بغض
الطرف عنها لانها تغض الطرف عنه . . . ثم انظر الى
ذلك البيت المحاط بالحديقة الغناء فهو مسكن رجل بيتي
الى اسرة شريفة حكمت البلاد مدة طويلة وقد انخفض
مقامها اليوم بتوزيع ثروتها وانصراف ابنائها الى التواني
والكسل . وقد اقترن هذا الرجل منذ اعوام بفتاة قبيحة
الصورة لكنها غنية جداً وبعد استيلائه على ثروتها الطائلة
نسي وجودها واتخذ له خلية حسناء وغادرها تنهش
اصابعها ندماً وتذوب شوقاً وحنيناً . وهي الان تصرف
الساعات بتجميد شعرها وتكحيل عينيها وتلوين وجهها
بالمساحيق والعقاقير وتزيين قامتها بالاطالس والحريير
لعلمها تحظى بنظرة من احد زائريها لكنها لا تحصل الا
على نظرات شبحها في المرآة . . . ثم انظر الى ذلك المنزل

الكبير المزين بالنقوش والتماثيل فهو منزل امرأة جميلة
 الوجه خبيثة النفس قد مات زوجها الاول فاستأثرت
 بامواله واملاكه ثم اخارت من بين الرجال رجلاً ضعيف
 الجسم والارادة واتخذته بعلاً لتخني باسمه من السنة
 الناس وتدافع بوجوده عن منكراتها . وهي الان بين
 مريديها كالنحلة تمتص من الزهور ما كان حلواً ولديداً
 وانظر الى تلك الدار ذات الاروقة الوسيعة والقناطر
 البديعة فهي مسكن رجل مادّي الاميال كثير المشاغل
 والمطامع وله زوجة كل ما في جسدها جميل وحسن
 وكل ما في روحها حلواً ولطيف وقد تمازجت في شخصها
 عناصر النفس بدقائق الجسد مثلما تتألف في الشعر نعمة
 الوزن بركة المعاني . فهي قد كوزت لتعيش بالحب وتموت
 به . لكنها كالكثيرات من بنات جنسها قد جنى عليها

والدها قبل بلوغها الثامنة عشرة من عمرها ووضع عنقها
تحت نير الزيجة الفاسدة . وهي الان سقيمة الجسم تذوب
كالشمع بجمرة عواطفها المقيدة وتضمحل على مهل كالرائحة
الزكية امام العاصفة وتفنى حياً بشيء جميل تشعر به ولا
تراه وتصبو حينئذ الى معانقة الموت لتخلص من حياتها
الجمادة وتحرر من عبودية رجل يصرف الايام بجمع
الدنانير والليالي بعدها ويصر اسنانه مجدفاً على الساعة
التي تزوج فيها بامرأة عاقر لا تلد له ابناً ليحي اسمه ويرث
ماله وخيراته . . . ثم انظر الى ذلك البيت المنفرد بين
البساتين فهو مسكن شاعر خيالي سامي الافكار وروحي
المذهب له زوجة غليظة العقل خشنة الطباع تسخر باشعاره
لانها لا تفهمها وتستهزى باعماله لانها غريبة وهو الان
مشغول عنها بحبة امرأة اخرى متزوجة لتوقد ذكاء

وتسيل رقةً وتولد في قلبه النور بانعظافها وتوحي اليه
الاقوال الخالدة بابتساماتها ونظراتها»

وسكتت السيدة وردة هنيهةً وقد جلست على مقعد
بجانب النافذة كان نفسها قد تعبت من التجول في محاذع
تلك المنازل الخفية ثم عادت تقول بهدوء: « هذه هي
القصور التي لم ارض ان اكون من سكانها . هذه هي
القبور التي لم ارد ان اُدفن حية طي لحودها . هؤلاء هم
الناس الذين تخلصت من عوائدهم وخلعت عني نير جامعهم
هؤلاء هم المتزوجون الذين يقترنون بالاجساد ويتنافرون
بالروح ولا شفيع بهم امام الله سوى جهلهم ناموس الله .
انا لا ادينهم الان بل اشفق عليهم ولا اكرههم بل اكره
استسلامهم عفواً الى الرياء والكذب والخباثة . ولم اكشف
امامك خفايا قلوبهم واسرار معيشتهم لانني احب الاغنياب

وانميعة بل فعلت ذلك لاريك حقيقة قوم كنت بالامس
 مثلهم فنجوت . واين لك معيشة بشر يقولون عني كل كلمة
 شريرة لاني خسرت صداقتهم لارج نفسي وخرجت
 عن سبل خداعهم المظلمة وحوات عيني نحو النور حيث
 الاخلاص والحق والعدل . وقد نفوني الان من جامعتهم
وانا راضية لان البشر لا ينفون الا من تمردت روجه الكبيرة
على الظلم والجور . ومن لا يوتر النفي على الاستعباد لا
يكون حراً بما في الحرية من الحق والواجب . انا كنت
 بالامس مثل مائدة شهية وكان رشيدك يقترت مني
 عندما يشعر بحاجة الى الطعام اما نفسانا فتظلان بعدتين
 نحادمين ذليلين . ولما رأيت المعرفة كرهت الاستخدام
 وقد حاولت الخضوع لما يدعونه نصيباً فلم اقدر لان روحي
 الأبت ان اصرف العمر كله راكعة امام صنم مخيف اقامته

الاجيال المظلمة ودعته الشريعة . فكسرت قيودي لكنني
 لم القها عني حتى سمعت الحب منادياً ورأيت النفس متأهبة
 للمسير فخرجت من منزل رشيد خروج الاسير من مجنه
 تاركةً خلني الحللى والحلل والخدم والمركبات وجئت بيت
 حبيبي الخالي من الرياش المملوء من الروح وانا عالمة بانني لم
 افعل غير الحق والواجب لان مشيئة السماء ليست بان
 اقطع جناحي بيدي وارتمي على الرماد حاجبةً رأسي بساعدي
 ساكبة حشاشتي من اجفاني قائلة هذا نصيبي من الحياة .
 ان السماء لا تريد ان اصرف العمر صارخة متوجعة في
 الليالي قائلة متى يبجي الفجر وعندما يبجي الفجر اقول متى
 ينقضي هذا النهار . ان السماء لا تريد ان يكون الانسان
 تعيشاً لانها وضعت في اعماقه الميل الى السعادة لانه بسعادة
 الانسان يتمجد الله . . هذه هي حكايتي ايها الرجل وهذا

احتياجي امام السماء والارض وانا اردده واترنمبه والناس
 يغلقون اذانهم ولا يسمعون لانهم يخشون ثورة ارواحهم
 ويخافون ان تنزع اسس جامعتهم وتهبط على رؤسهم
 هذه هي العقبة التي مرت عليها حتى بلغت قمة سعادي ولو
 جاء الموت واخطفني الان لوقفت روعي امام العرش
 الاعلى بلا خوف ولا وجل بل بفرح وامل وانحلاب
 لغائف ضميري امام الديان الاعظم وبانت نقيه كالثلج
 لانني لم افعل غير مشيئة النفس التي فصلها الله عن ذاته ولم
 اتبع غير نداء القلب وصدى اغاني الملائكة . هذه هي
 روايتي التي يحسبها سكان بيروت لعنة في فم الحياة وعلة
 في جسم الهيئة الاجتماعية ولكنهم سوف يندمون عندما
 تنبه الايام محبة المحبة في قلوبهم المظلمة مثلما تستنبت الشمس
 الزهور من بطن الارض المملوء من بقايا الاموات فيقف

اذك عابر الطريق بجانب قبري ويلقي عليه السلام قائلاً
هنا رقدت وورده الهاني التي حررت عواطفها من عبودية
الشرائع البشرية الفاسدة لتحيبنا موس الهبة الشريفة
وحولت وجهها نحو الشمس كيلا ترى ظل جسدها بين
الجمام والاشواك»

•••••

ولم تنه السيدة وورده من كلامها حتى فتح الباب ودخل
علينا فتى نحيل القوام جميل الوجه تنسكب من عينيه
اشعة سحرية وتسيل على شفثيه ابتسامة لطيفة . فوقفت
السيدة وورده ولمسكت بذراعه بانعطاف كلي وقدمته الي
بعد ان لفظت اسمي مذيلاً بكلمة لطيفة واسمه مشفوعاً
بنظرة معنوية فعرفت بانه ذلك الشاب الذي انكرت
العالم وخالف الشرائع والتقاليد من اجله . ثم جلسنا جميعاً

صامتين لانشغال كل منا بمعرفة رأي الآخر فيه حتى اذا مرت
دقيقة مملوءة من السكينة التي تستميل النفوس الى الملاء الاعلى
نظرت اليهما وقد جلسا احدهما بجانب الآخر فرأيت ما لم
اره قط وعرفت بلحظة معنى حكاية السيدة وردة وادركت
سراحتها على الهيئة الاجتماعية التي تضطهد الافراد
المترددين على شرائعها قبل ان تستفحص دواعي تهمهم .
رأيت روحاً واحدة سماوية ممثلة امامي يجسدان يحملها
الشباب ويسر بلها الاتحاد وقد وقف بينهما اله الحب
باسطاً جناحه ليجمعهما من لوم الناس وتعنيفهم . وجدت
التفاهم الكلي منبعثاً من وجهين شفافين ينيرهما الاخلاص
ويحيط بهما الطهر . وجدت لأول مرة في حياتي طيف
السعادة منتصباً بين رجل وامرأة يرذلها الدين وتبذرها
الشريعة

وبعد هنيهة وقفت وودعتها مظهرًا بغير الكلام

تأثيرات نفسي وخرجت من ذلك المنزل الحخير الذي جعلته العواطف هيكلاً للحب والوفاق وسرت بين تلك القصور والمنازل التي اظهرت لي خفاياها السيدة ورده مفكراً أجدثها وبكل ما ينطوي تحته من المبادئ والتأثيرات لكنني لم ابلغ اطراف ذلك المحي حتى تذكرت رشيد بك نعمان فتمتكت لبصيرتي لوعة قنوطه وشقائه فقلت في ذاتي (هو تعيس مظلوم ولكن هل تسمعه السماء اذا وقف امامها متظلاً شاكياً ورده الهاني ؟ هل جنت عليه تلك المرأة عندما تركته واتبعت حرية نفسها ام هو الذي جنى عليها عندما أخضع جسدها بالزواج قبل ان يستميل روحها بالمحبة فمن هو الظالم من الاثنين ومن هو المظلوم . من هو المجرم ومن هو البريء يا ترى ؟) ثم عدت قائلاً لذاتي مستفتياً اخبار الايام مستقصياً حوادثها (كثيراً ما اباح الغرور

للنساء ان يتركن رجالهن الفقراء ويتعلقن بالرجال الاغنياء
 لان شغف المرأة بهرجة الملابس ونعومة العيش يعمي
 بصيرتها ويقودها الى العار والانحطاط فهل كانت ورده
 الهاني مغرورة وطامعة عندما خرجت من قصر رجل غني
 مفعم بالحلى والحلل والرياش والخدم وذهبت الى كوخ رجل
 فقير لا يوجد فيه سوى صف من الكتب القديمة؟ وكثيراً
 ما يمت الجهل شرف المرأة ويحيي شهواتها فتترك بعلمها مللاً
 وتضجر أو تطلب ملذات جسدها بقرب رجل اخر اكثر
 منها انحطاطاً واقل شرفاً فهل كانت ورده الهاني جاهلة
 راغبة بالملذات الجسدية عندما اعلنت استقلالها على روءوس
 الاشهاد وانضمت الى فتى روجي الاميال وقد كان
 بإمكانها ان تشبع حواسها سرّاً في منزل زوجها من هيام
 الفتيان الذين يستمتون ليكونوا عبيد جمالها وشهداء غرامها؟

ورده الهاني كانت امرأة تعيسة فطلبت السعادة فوجدتها
وعانقتها وهذه هي الحقيقة التي تحتقرها الجامعة الانسانية
وتنفيا الشريعة)

همست تلك الكلمات في مسامع الاثير ثم قلت مستدركا
(ولكن أيسوغ للمرأة ان تشتري سعادتها بتعاسة بعلمها ؟)
فاجابني نفسي قائلة (وهل يجوز للرجل ان يستعبد
عواطف زوجته ليبقى سعيداً ؟)

وظلت سائراً وصوت السيدة ورده يتموج في مسامعي
حتى بلغت اطراف المدينة والشمس قد مالت الى الغروب
وابتدأت الحقول والبساتين تتشح بنقاب السكينة والراحة
والطيور تنشد صلاة المساء فوقفت متأملاً ثم تنهدت قائلاً
(امام عرش الحرية تفرح هذه الاشجار بمداعبة النسيم

وامام هيبتها تبتهج بشعاع الشمس والقمر . . . على مسامع
الحرية تناجي هذه العصافير وحول اذياها ترفرف بقرب
السواقي . . . في فضاء الحرية تسكب هذه الزهور عطر
انفاسها وامام عينها تبسم لحيء الصباح . . . كل ما في
الارض يحيا بناموس طبيعته ومن طبيعة ناموسه يستمد مجد
الحرية وافراحها . . . اما البشر فحجروا هذه النعمة
لانهم وضعوا لارواحهم الالهية شريعة عالمية محدودة .
وسنوا لاجسادهم ونفوسهم قانوناً واحداً قاسياً . واقاموا
لاميالهم وعواطفهم سجناً ضيقاً مخيفاً . وحفروا لقلوبهم
وعقولهم قبرا عميقاً مظلماً . فاذا ما قام واحد من بينهم
وانفرد عن جامعتهم وشرائعهم قالوا هذا متمرّد شرير خايق
بالنبي وساقط دنس يستحق الموت . . . ولكن هل يظل
الانسان عبداً لشرائعه الفاسدة الى انقضاء الدهر ام تحرره

الایام لیجی بالروح وللروح؟ ابقی الانسان محققا بالتراب
ام یجول عینہ نحو الشمس کیلا یرے ظل جسده بین
الاشواک والجماجم؟

تمت



صراخ القبور

١

ترجع الأمير على منصة القضاء فجلس عقلاء بلاده عن
يمينه وشماله وعلى وجوههم المتجمدة تنعكس اوجه الكتب
والاسفار . وانتصب الجند حوله ممشقين السيوف رافعين
الرماح . ووقف الناس امامه بين متفرج أتى به حبة
الاستطلاع ومترب يتنظر الحكم في جريمة قريه وجمعهم
قد احنوا رقابهم وخشعوا ببصائرهم وامسكوا انفسهم كأن
في عيني الأمير قوة توغز الخوف وتوحي الرعبه الى
نفوسهم وقلوبهم . حتى اذا ما اكتمل المجلس وازفت
ساعة الدينونة رفع الامير يده وصرخ قائلاً « احضروا
المجرمين امامي واحداً واحداً واخبروني بذنوبهم
ومعاصيهم » . ففتح باب السجن وبانت جدرانها المظلمة

مثلما تظهر حنجرة الوحش الكاسر عندما يفتح فكيه
 متثابراً . وتصاعدت من جوانبه قلقة القيود والسلاسل
 متآلفة مع أنين الحبس ونحيبهم . فحول الحاضرون
 اعينهم وتطاوات اعناقهم كأنهم يريدون مسابقة الشريعة
 بنواظرم ابروا فريسة الموت خارجة من اعماق ذلك القبر
 وبعد هنيهة خرج من السجن جنديان يقودان فتى
 مكتوف الساعدين ينكلم وجهه العابس وملامحه المنقبضة
 عن عزة في النفس وقوة في القلب . ووقفاه وسط
 المحكمة وتراجما قليلا الى الورا . فاحدق به الأمير
 دقيقة ثم سأل قائلاً « ما جريمة هذا الرجل المنتعيب امامنا
 برأس مرفوع كأنه في موقف الفخر لا في قبضة الدينونة »
 فاجابه رجل من اعوانه قائلاً

« هو قاتل شرير قد اعترض بالامس قائداً من
 قواد الامير وجندله صريماً اذ كان ذاهباً مهمة بين القرى
 وقد قبض عليه والسيف المغمول بدماء القتل ما زال مشهوراً

في يده «

فتحرك الامير غضباً فوق عرشه وتطايرت سهام الخنق
من عينيه وصرخ باعلى صوته قائلاً « ارجعوه الى الظلمة
واثقلوا جسده بالقيود وعندما يجي فجر الغد اضربوا عنقه
بجد سيفه ثم اطرحوا جثته في البرية لتجردها العقبان
والضواري وتحمل الرياح رائحة تمانتها الى انوف اهل
ومحبته »

ارجعوا الشاب الى السجن والناس يتبعونه بنظرات
الاسف والتنهيدات العميقة لانه كان فتى في ربيع العمر
حسن المظاهر قوي البنية

وخرج الجنديان ثانية من السجن يقودان صبوية
جمينة الوجه ضعيفة الجسد قد وشح معانيها اصفرار اليأس
والقنوط غمرت عينها العبرات ولوت عنقها الندامة والحسرة
فنظر اليها الامير قائلاً « وما فعلت هذه الامراة

المهزولة الواقعة امامنا وقوف الظل بجانب الحقيقة ؟ »
 فاجابه احد الجنود قائلاً « هي امرأة عاهرة قد فاجأها
 بعلمها ليلاً فوجدتها بين ذراعي خليلها فاسلمها للشرطة بعد
 ان فرّ أليفها هارباً »

فاحدق الامير بها وهي مطرقة تجلاً ثم قال واسنانه
 صارفة بشدة وقساوة « ارجعوها الى الظلمة ومددوها على
 فراش من الشوك لعلها تذكر المضجع الذي دنسته بعيها
 واسقوها الخل ممزوجاً بنقيع الملقم عساها تذكر طعم القبل
 المحرّمة وعند مجيء الفجر جرّوها عارية الى خارج المدينة
 وارجموها بالحجارة واتركوا جسدها هناك لكي تنعم بالعمانه
 ذئاب وتنخر عظامه الديدان والحشرات »

توارت الصبية بظلمة السجن والحاضرون ينظرون اليها
 بين معجب بعدل الامير ومتأسف على جمال وجهها
 الكئيب ورقة نظراتها المحزنة

وظهر الجنديان ثالثة يقودان كهلاً ضعيفاً يسحب

ركبته المرتعشتين كأنهما خرقان من اطراف ثوبه البالي
ويتلفت جزءاً الى كل ناحية ومن نظراته الموجعة تنبعث
خيالات البؤس والفقر والنعاسة

فالتفت الامير نحوه وقال بلهجة الاشمزاز ,, وما ذنب

هذا القدر الواقف كالميت بين الاحياء ..

فاجابه احد الجنود قائلاً ,, هو لص سارق قد

دخل الدير ليلاً قبض عليه الرهبان الاتقياء ووجدوا

طبي اثوابه آنية مذبحهم المقدسة ..

فنظر اليه الامير نظرة النسر الجائع الى عصفور مكسور

الجناحين وصرخ قائلاً ,, انزلوه الى اعماق الظلمة واكلوه

بالحديد وعند مجي الفجر جرّوه الى شجرة عالية واشنقوه

بجبل من الكتان واتركوا جسده معلقاً بين الارض والسماء

فتشر العناصر اصابه الاثيمة نثراً وتندري الرياح اعضاءه

نقياً ..

ارجموا اللص الى السجن والناس يهيمون بعضهم

في آذان بعض قائلين « كيف تجرأ هذا الضعيف الكافر
على اخلاص آنية الدير المقدسة »

ونزل الامير عن كرسي القضاء فاتبعه العقلاء
والمنشعون وسار الجند خلفه وامامه وتبدد شمل المتفرجين
وخلا ذلك المكان الا من عويل المسجونين وزفرات
القائطين التمايلة كالحيايات على الجدران

جرى كل ذلك وانا واقف هناك وقوف المرأة امام
الاشباح السائرة مفكراً بالشرائح التي وضعا للبشر للبشر
متأملآ بما يحسبه الناس عدلاً منعمآ بأسرار الحياة باحثآ
عن معنى الكيان . حتى اذا ما تضعضت افكاري مثلما
تتوارى خطوط الشفق بالضباب خرجت من ذاك المكان
قائلاً لذاتي (الاعشاب تمتص عناصر التراب . والخروف
يلتهم الاعشاب . والذئب يفترس الخروف . ووحيد
القرن يقتل الذئب والاسد يصيد وحيد القرن . والموت
يفني الاسد . فهل توجد قوة تتغلب على الموت فتجعل

سلسلة هذه المظالم عدلاً سرمدياً ؟ ... أتوجد قوة
تحول جميع هذه الأسباب الكريهة الى نتائج جميلة ؟
أتوجد قوة تقبض بكفها على جميع عناصر الحياة وتضمد
الى ذاتها مبتسمة مثلما يرجع البحر جميع السواقي الى
اعماقه مترنماً ؟ أتوجد قوة توقف القاتل والمقتول والزانية
وخليلها والسارق والمسروق منه امام محكمة اسمى واعلى
من محكمة الامير ؟

وفي اليوم الثاني خرجت من المدينة وسرت بين
 الحقول حيث تبيح السكينة لانفس ما أسرته النفس ويميت
 طهر الفضاء جراثيم اليأس والقنوط التي تولدها الشوارع
 الضيقة والمنازل المظلمة . ولما بلغت طرف الوادي التفت
 فاذا باجواق كثيرة من العماز والغربان والنسور تتطاير
 تارة وتهبط طوراً . وقد ملأت الفضاء بنعابها وصفيورها
 وحفيف اجنحتها . فتقدمت قليلاً مستظلاً فرايت امامي
 جثة رجل معلقة على شجرة عالية وجثة امرأة عارية
 مطروحة بين الحجارة التي رجمت بها وجثة فتى غارقة
 بالدماء المجبولة بالتراب وقد فصل رأسها عنها

وقفت وهول المشهد يغثنى بصيرتي بنقاب كتيّف
 مظلم ونظرت فلم أر سوى خيال الموت المريع منتصباً بين
 الجثث الملطخة بالدماء . واصغيت فلم اسمع غير عويل
 العدم ممزوجاً بنعاب الغربان الحائمة حول فريسة شرائع
 البشر

ثلاثة من أبناء آدم كانوا بالامس على احضان الحياة
 فاصبحوا اليوم في قبضة الموت
 ثلاثة اساءوا بعرف البشر الى الناموس فمدت الشريعة
 العمياء يدها وسحقتهم بقساوة
 ثلاثة جعلهم الجهل مجرمين لانهم ضعفوا فحملتهم
 الشريعة امواتاً لانها قوية

رجل فتك برجل آخر فقال الناس هذا قاتل ظالم
 وعندما فتك به الامير قال الناس هذا امير عادل
 ورجل حاول ان يسلب الدير فقال الناس هذا لص
 شرير . وعندما سلبه الامير حياته قالوا هذا امير فاضل

وامرأةٌ خانت بعلمها فقاتل الناس هي زانية عاهرة .
ولكن عندما سيرها الامير عارية ورجمها على رؤوس
الاشهاد قالوا هذا امير شريف

سفك الدماء . معرّم . ولكن من حاله للأمير ؟
سلب الاموال جريمة . ولكن من جعل سلب
الارواح فضيلة ؟

خيانة النساء قبيحة . ولكن من صبر رجم الاجساد
جميلاً ؟

أتقابل الشر بشر اعظم وتقول هذه هي الشريعة .
وتقاتل الفساد بفساد اعم . ونهتف هذا هو الناموس
ونطالب الجريمة بجريمة اكبر . ونصرخ هذا هو العدل ؟
أما صرع الأمير عدواً في غابر حياته . أما سلب
مالاً لو عقاراً من احد تابعيه الضعفاء . اما راود امرأة
جميلة عن نفسها ؟ هل كان مذهباً عن هذه المحرمات
فاز له اعدام القاتل وشق السارق ورجم الزانية ؟

ومن هم الذين رفعوا هذا الاصل على الشجرة ؟
املائكة نزلوا من السماء رجال يفتصبون ويسرقون كل
ما تصل اليه ايدهم ؟

ومن قطع رأس هذا القاتل ؟ انبياء هبطوا من
العلاء ام جنود يقتلون ويسفكون الدماء اينما حلوا ؟
ومن رجم هذه الزانية ؟ أنساك طاهرون أتوا من
صوامعهم ام بشر يأتون المنكرات ويفعلون الرذائل
مختبئين بستائر الظلام ؟

الشريعة . وما هي الشريعة ؟ من رآها نازلة مع
نور الشمس من اعماق السماء . واي بشري رأى قلب
الله فعلم مشيئته في البشر . وفي اي جيل من الاجيال
سار الملائكة بين الناس قائمين احرموا الضعفاء نور الحياة
وافنوا الساقطين بحمد السيف ودوسوا الخطاة باقدام من
حديد

وظلت هذه الافكار تتزاحم على فكري وتنساح

عواظني حتى سمعت وطء اقدم قريبة مني فظرت واذا
بصية قد ظهرت من بين الاشجار واقتربت من الجثث
الثلاث متحدرة متلففة بخوف الى كل ناحية . حتى اذا
ما رأته رأس الفتى المقطوع صرخت جزعاً وركعت بجانبه
وطوقته بزنديها المرتجفتين وأخذت تستفرغ الدموع من
عينها وتلامس شعره الجعدي باطراف اصابعها وتتعجب
بصوت عميق جارج خارج من صميم الكبد ولما انهكها
البكاء وغلبتها الحسرات اسرعت تحفر التراب بيديها حتى
اذا ما حفرت قبراً وسبعاً وجرت اليه الفتى المصروع
ومددته على مهل موجه ووضعت رأسه المضرج بالدماء
بين كتفيه وبعد ان غمرته بالتراب غرمت نصل السيف
الذي قطع عنقه على قبره واذا همت بالانصراف تقدمت
نحوها فاجفلت وارتمشت خوفاً ثم اطرقت والدمع السخين
يتساقط كالطر من مقلتيه وقالت متتهدة ,, اشكني الى
الامير ان شئت فخير لي ان اموت والحق بمن خلصني

من قبضة العار من ان اترك جسده طعاماً لقشاعم الطير
والوحوش الكواسر " فاجبتها قائلاً " لا تخافي مني ايتها
المسكينة . فانا قد نذبت حظ فاك قبلك بل خبريني
كيف اتذك من قبضة العار »

فقلت والنقص تقطع صوتها « جاء قائد الامير الى
حقولنا ليتقاضى الضرائب ويجمع الجزية ولما رأي نظر الي
نظرة استحسان مخيفة ثم فرض ضريبة باهظة على حقل
والذي الفقير يعجز الفتي عن دفعها فقبض علي ليقادني
فهرأ الى صرح الامير بدلاً من الذهب فاسترحته بدموعي
فلم يحفل واستحلفته بشيخوخة والذي فلم يرحم فصرخت
مستغيثة برجال القرية فجاء هذا الشاب وهو خطيبي
وخلصني من بين يديه القاسيتين فاستشاط غضباً وهم ان
يفتك به فسبقه الشاب وامتشق سيفاً قديماً معلقاً على الحائط
وصرعه به مدافعاً عن حياته وعن عرضي ولكبر نفسه لم
يفر هارباً كالقتلة المجرمين بل لبث واقفاً بقرب جثة

القائد الظلوم حتى جاء الجند وساقوه الى السجن مكبلاً
بالقيود «

قالت هذا ونظرت الي نظرة تذيب الفؤاد وتثير
الشجون وولت مسرعة ورنات صوتها الموجهة تولد بين
تموجات الاثير اهتزازاً وارتعاشاً

وبعد هنيهة نظرت فرأيت فتى في ربيع العمر يتقدم
ساتراً وجهه باثوابه حتى اذا ما بلغ جثة المرأة الزانية وقف
بقربها وخلع عباءته وستر بها اعضاءها العارية وأخذ يحفر
الارض بمنجبر كان معه ثم حملها يهدوء وواراها للتراب
ساكباً مع حفنته قطرة من اجفانه ولما انتهى من عمله حتى
بعض الزهور النابتة هناك ووضعها على القبر منحني الرأس
منخفض الطرف . واذ هم بالذهاب اوقفته قائلاً « ما
نسبة هذه المرأة الساقطة اليك حتى سميت مخالفاً ارادة
الامير ومخاطراً بحياتك لكي نحمي جسدنا المرضوض من
طيور السماء الجوارح «

فنظر اليّ واجفانه المقرحة من البكاء والسهرة تنكلم
 عن شدة حزنه ولوعته وبصوت مخنوق تراققه التهديدات الاليمة
 قال ، انا هو ذلك الرجل التemis الذي رجعت من اجله
 — اجبتها واحببني مذ كنا صغيرين نلعب بين المنازل
 نمونا ونما الحب معنا حتى صار سيداً قوياً نخدمه بمواطن
 قلبينا فيستميانا اليه ونهابه بسرائر روحينا فيضمنا الى صدره
 ففي يوم وقد كنت غائبة عن المدينة زوّجها والدها كرهاً
 من رجل تكرهه ولما رجعت وسمعت بالخبر تحولت ايامي
 الى ليل طويل خالك وصارت حياتي نزعاً مرّاً متواصلاً
 وبقيت اصارع عواطفني واغالب اميال نفسي حتى تغلبت
 عليّ وقادتني مثلما يقود البصير ضريراً اعشى . فذهبت
 الى حبيبتني سرّاً واقصى مرامي ان ارى نور عينها واسمع
 نغمة صوتها فوجدتها مفردة تنذب حظها وترثي ايامها
 فجلست والسكينة حديثنا والعفاف ثالثنا — ولم تمر ساعة
 حتى دخل فجأة ولما رآني اوعزت اليه نياته القدرة فقبض

على عنقها الاملس بكفنه القاسيتين وصرخ باعلى صوته
 (تعالوا وانظروا الزانية وعشيقتها) فهرول الجيران ثم جاء
 الجند مستظلمين الجبر فاسلمها الى ايديهم الخشنة فاقتادوها
 محلولة الشعر ممزقة الاثواب . اما نا فلم يمضي احد يضرر
 لان الشريعة العمياء والتقاليد الفاسدة تظلم المرأة اذا

سقطت اما الرجل فتسامحه

وعاد الشاب نحو المدينة سائراً وجهه باثوابه ولبثت
 انا ناظراً متأملاً متهدداً وجثة اللص المشنوق ترتجف
 قليلاً كلما هزّ الهواء اغصان الشجرة كأنها تسترحم بحراكها
 ارواح الفضاء لتهبط وتمددها على صدر الارض بجانب
 قبيلة المروءة وشهيدة الحب

وبعد ساعة ظهرت امرأة ضعيفة الجسم ترتدي خرقاً
 بالية ووقفت بقرب المشنوق تقرع صدرها باكية ثم تسلقت
 الشجرة وقضمت حبل الكتان باسنانها فسقط الميت على
 الارض سقوط الثوب البليل . فزلت المرأة وحفرت قبراً

بجانب القبرين ووضعت فيه . وبعد أن غمرته بالتراب
 اخذت قطعتين من الخشب وضعت منهما صليبا وغرسته
 فوق رأسه . ولما تحولت نحو الوجهة التي جاءت منها
 اوقفتها قائلاً ، ما غرك ايها الامراة فجت تدفين لصا
 سارقاً “

ف نظرت اليها بينين غارقتين مكحولتين باشباح المكآبة
 والشقاء وقالت ، هو زوجي الصالح ورفيقي الخون ووالد
 اطفالي — خمسة اطفال يتضورون جوعاً اكبرهم في الثامنة
 واصغرم رضيم لم يفطم . . . لم يكن زوجي لصاً بل كان
 زراعاً يفلح ارض الدير ويستغلها ولا يحصل من الرهبان
 الطامعين الا على رغب تقاسمه عند المساء ولا تبقى منه
 لقمة الى الصباح . . . مذ كان فتى وهو يستقي بعرق
 حبينه حقول الدير ويزرع عزم ساعديه في بساتينه . ولما
 ضعف واتمته اعوام العمل قواه وراودت الامراض
 جسده ابعده فائلين (لم يعد الدير محتاجاً اليك فاذهب

الان وعندما يشب ابناوك ابعثهم الينا لكي يأخذوا
 مكانك في الحقل) . فبكى وابكافى امامهم واسترحمهم
 باسم يسوع الناصري واستحلفهم بالملائكة والقديسين فلم
 يرحموه ولم يشفقوا عليه وعليه وعلى صغارنا العراة الجائعين
 فذهب يطلب عملاً في المدينة وعاد مطروداً لان سكان
 تلك القصور لا يستخدمون الا الغتبان الاقوياء . ثم جلس
 على قارعة الطريق مستعطياً فلم يحسن الناس اليه بل كانوا
 يرون به قائلين (الصدقة لا تجوز على مغلوب التواني
 والكسل) ففي ليلة وقد برح العوز بنا حتى صار اطفالنا
 يتلمون جوعاً على التراب . والرضيع بينهم يمص ثديي ولا
 يجد لبناً . تغيرت ملامح زوجي وذهب مستتراً بالظلام
 ودخل قبواً من اقية الدبر حيث يخزن الرهبان غلة الحقل
 وخر الكروم وحمل زنبلاً من الدقيق على ظهره وهم بالرجوع
 اليئنا لكنه لم يسر بضع خطوات حتى اسابتظ القس من
 رقادهم وقبضوا عليه واوسموه ضرباً وثباتاً وعندما ساء

الصباح اسلموه الى الجند قائلين (هو لص شرير جاء لكي يسرق آنية الدير الذهبية) فاقتاده الجند الى السجن ثم الى المشنقة ليملاؤوا اجواف العقبان من جسده لانه جاول ان يملأ اجواف صغاره الجياع من فضلات الغلة التي حناها باتعابه اذ كان خادماً للدير .

وذهبت المرأة الفقيرة ولكلامها المتقطع اشباح محزنة تتصاعد وتتسارع الى كل ناحية كأنها اعمدة من الدخان يتلاعب بها الهوا .



وقفت بين القبور الثلاثة وقفة موهبن أرتج عليه وانمقد لسانه لوعة فانسكب دمه متكلماً عن عواطفه .
وحاولت التفكير والتأمل فعصتني نفسي لان النفس كالزهرة تضم اوراقها امام الظلمة ولا تعطي انفاسها لخيالات الليل

وقفت ومن دقائق تراب تلك القبور ينبثق صراخ

التظلم انبثاق الضباب من خلايا الاودية و يتموج حول
مسامعي ليوحى اليّ الكلام

وقفت ساكتاً ولو فهم الناس ما تقوله السكينة لكانوا

اقرب الى الالهة منهم الى كواسر الغاب

وقفت متنهداً ولو لامست شعلات تنهيداتي اشجار

ذلك الحقل لتحركت وتركت اماكنها وزحفت كتائب

كتائب وحاربت بقضبانها الامير وجنوده وهدمت بجذوعها

جدران الدير على رؤوس رهبانه

وقفت ناظراً ومع نظراتي تنسكب حلاوة الشفقة ومرارة

الحزن على جوانب تلك القبور الجديدة — قبر فتى دافع

بجياته عن شرف عذراء ضعيفة واتقدها من بين اظافر ذئب

كاسر فقطعوا عنقه جزاء شجاعته . وقد اغمدت تلك الصبية

سيفه بتراب قبره ليبقى هناك رمزاً يتكلم امام وجه الشمس

عن مصير الرجولية في دولة الحيف والغباوة — وقبر صبية

لامس الحب نفسها قبل ان تغتصب المطامع جسدها

فرجت لان قلبها أبي الا ان يكون اميناً حتى الموت . وقد

وضع حبيها باقة من زهور الحقل فوق جسدها الهامد
 لتتكلم بذبولها وفنائها البطيء . عن مصير النفوس التي
 يقدسها الحب بين قوم اعتمهم المادة واخرسهم الجهل —
 وقبر فقير بائس او هت ساعديه حقول الدير فطرده الرهبان
 ليستعوضوا عنها بسواعد غيره . فطلب الخبز لصفاره بالعمل
 فلم يجده . ثم رجاء بالتسول فلم ينله . وعندما دفعه
 اليأس الى !سترجاع قليل من الغلة التي جمعها باتعابه
 وعرق جبينه قبضوا عليه وقتكوا به . وقد وضعت ارملته
 صلياً على قبره ليدلشهد في سكينه الليل نجوم السماء على
 ظلم رهبان يحولون تعاليم الناصري الى سيوف يقطعون
 بها الرقاب . يمزقون بحدودها السنينة اجساد المساكين
 والضعفاء

وتوارت الشمس اذ ذاك وراء الشفق كأنها ملت
 متاعب البشر وكرهت ظلمهم . وابتدأ المساء يحبك من
 خيوط الظل والسكون نقاباً دقيقاً ليلقيه على جسد الطبيعة
 فرفعت عيني الى الملاء وبسطت يدي نحو القبور وما عليها

من الرموز وصرخت باعلى صوتي ,, هذا هو سيفك ايها
 الشجاعة فقد اعمد بالتراب . وهذه هي زهورك ايها الحب
 فقد لفحتها النيران . وهذا هو صليبك يا يسوع الناصري
 فقد غمرته ظلمة الليل “



مضجع العروس (١)

(١) هي حادثة جرت في شمال لبنان في النصف
 الاخير من الجيل التاسع عشر وقد اخبرني بها سيدة فاضلة
 من تلك النواحي تنسب الى احد اشخاص الحكاية

خرج العريس والعروس من الهيكل يتبعهما المهنتون
 الفارحون وبتقدمها الشموع والمصابيح ويسير حولها
 الفتيان المترنمون بالاهازيج والصبايا المنشدات اغاني
 السرور.

بلغ الموكب منزل العريس المزدان بالرياش الثمينة
 والاواني المتلمعة والرياحين العطرة فاعتلى العروسان
 مقعداً مرتفعاً وجلس المدعوون على الطنافس الحريرية
 والكراسي المخملية حتى غصت تلك القاعة الوسيعة
 باشكال الناس . وسعى الخدام بآنية الشراب فتصاعدت
 رنات الكؤوس متآلفة مع هتاف الغبطة ثم جاء الموسيقيون
 وجلسوا يسكرون النفوس بانفاسهم السحرية ويبطنون
 الصدور بالحنان المنسوجة مع همس ارتار العود وتنهيدات
 الناس وحفيف الدفوف

ثم قامت الصبايا يرقصن ويتمايلن بقامات تلاحق
مقاطيع اللحن مثلما تتابع الاغصان اللينة مجاري هبوب
النسيم . وتثني طيات اثوابهن الناعمة كأنها سحب بيضاء
يداعبها شعاع القمر : فشخصت اليهن الابصار وسجدت
لهنَّ الروءوس وعانقتهن ارواح الفتيان وتفطرت لجمالهن
مرائر الشيوخ : ثم مال الجميع يستزيدون من الشراب
ويغمرون اميالهم بالخمور . فتمت الحركة وعلت الاصوات
وسادت الحرية وتوارت الرزانة وتضعضت الادمغة
وتلهبت النفوس واضطربت القلوب واصبح ذلك المنزل
بكل ما فيه كقيثارة مقطعة الاوتار في يد جنية غير
منظورة تضرب عليها بعنف وتولد منها انعاماً جامعة بين
التناسق والالتباس : فهنافتي ببوح بسرائر حبه لفتاة
اولاها الجمال تيماً ودلالاً . وهناك شاب يستعد لمحادثة

حسناً مستحضراً الى حافظته اعذب الالفاظ وارق
المعاني . وهناك كهل يجرع الكاس وراء الكاس ويطلب
بلجاجة الى المنشدين اعادة اغنية ذكرته بايام صباهه . في
هذه القرنة امرأة تغامر باطراف اجفانها رجلاً ينظر
بمودة الى سواها . وفي تلك الزاوية سيدة قد يبض
الشيب مفرقها تنظر متبسمة نحو الصبايا لتنتقي منهن
عروسة لوحيدها . وبجانب تلك النافذة زوجة قد
اتخذت سكر حليلها فرصة فاقتربت من خليلها . وجميعهم
غارقون في بحر من الخمر والغزل مستسلمون لتيار الغبطة
والسرور متناسون حوادث الامس منصرفون عن مآتي
الغد منعكفون علي استثمار دقائق الحاضر

كان يجري كل ذلك والعروس الجميلة تنظر بعينين
كئيبتين الى هذا المشهد مثلما ينظر الاسير اليأس الى

جدران سجنه السوداء . وتلتفت بين الاونة والاخرى
 نحو زاوية من زوايا تلك القاعة حيث جلس فتى في
 العشرين من عمره منفرداً عن الناس المغبوطين انفراد
 الطائر الجريح عن سربه مبكلاً زنديه على صدره كأنه
 يحول بهما بين قلبه والفرار . محمداً بشيء غير منظور في
 فضاء تلك القاعة كان ذاته المعنوية قد انفصلت عن
 ذاته الحسية وسبحت في الخلاء متبعة اشباح الليل .

انصف الليل وتعاضمت غبطة الجماعة حتى صارت
 ثورة . واختمرت ادمغتهم حتى تلجلجت السننهم . فقام
 العربس من مكانه وهو كهل خشن المظاهر وقد تغلب
 السكر على حواسه وطاف يتكلف اللطف والرقه بين
 الناس .

في تلك الدقيقة اومات العروس الى صبية ان

تقترب منها فأقتربت وجلست بجانبها وبعد ان تلفتت
 العروس الى كل ناحية تلفت جازع يريد ان يفشي سرّاً
 خفياً هائلاً لزت الى الصبية وهمست في اذنها هذه
 الكلمات بصوت مرتعش « استخلفك - يارفيقتي بالعواطف
 التي ضمت نفسيها مذ كنا صغيرتين . استخلفك - بكل ما
 هو عزيز لديك - في هذه الحياة . استخلفك بجانب
 صدرك . استخلفك بالحب الذي يلامس ارواحنا ويجعلها
 شعاعاً . استخلفك بافراح قلبك واوجاع قلبي ان تذهبي
 الان الى سليم وتطلبي اليه ان ينزل خفية الى الحديقة
 وينتظرنني هناك بين اشجار الصفصاف . تضرعي عني
 يا سوسان حتى يجيب ظلي . ذكره بالايام الغابرة توسلي
 اليه باسم الحب . قولي له هي تعيسة عمياء قولي هي مائة
 تريد ان تفتح قلبها امامك قبل ان يكتنفها الظلام

قولي له هي هالكة شقية تريد ان ترى نور عينيك قبل ان
تختطفها نار الجحيم قولي له هي خاطئة تريد ان تعترف
بذنوبها وتلتمس عفوك اسرعى اليه وابتلي عني امامه ولا
تخاف في مراقبة هؤلاء الخنازير لان الخمر قد سدت
آذانهم واعمت بصائرهم»

فقامت سوسان من جانب العروس وجلست بقرب
سليم الكئيب المنفرد وحده واخذت تستعطفه هامسة
في اذنه كلمات رفيقتها ودلائل الود والاخلاص بادية
على ملامحها وهو منحنى الرأس يسمع ولا يجيب بينت
شفة : حتى اذا ما انتهت من كلامها نظر اليها نظرة ظامئ
يرى الكاس في قبة الفلك وبصوت منخفض تخاله اتياً
من اعماق الارض اجابها قائلاً «سوف انتظرها في
الحديقة بين اشجار الصفصاف»

قال هذه الكلمات وقام من مكانه وخرج الى

الحديقة

ولم تمض بضعة دقائق حتى قامت العروس واتبعته
مختلسة خطواتها بين رجال فنتهم ابنة الكروم ونساء
اشغلت قلوبهن صباة الفتيان . ولما بلغت الحديقة الموشاة
بأشجار الليل اسرعت ملتفتة الى الوراء . ومثل غزال
جازع هارب الى كناسه من الذئاب الخاطفة تقدمت
نحو اشجار الصفصاف حيث وقف ذلك الفتى . ولما رأت
نفسها بجانبه ترامت عليه وطوقت عنقه بزنديها واحدقت
بعينه ثم قالت والالفاظ تتسارع من شفيتها بسرعة
الدموع من اجفانها « اسمعني يا حبيبي . اسمعني جيداً
ها قد ندمت على جهالتي وتسرعني . قد ندمت يا سليم
حتى سمعت الندامة كيدي . انا احبك ولا احب سؤالي

وسوف احبك الى منتهى العمر . قد اخبروني بانك
 سلوتي وهجرتي وتعلقت بهوى غيري . اخبروني بكل
 ذلك يا سليم وسمموا قلبي بالسنتهم ومزقوا صدري
 باظافرهم وملاءوا نفسي بكذبهم . قد اخبرتي نجية بانك
 سلوتي وكرهتني وانشغفت بجهها . قد ظلمتني تلك
 العاهرة واحتات علي عواظني لكي ارضى بنسيبها عريساً
 رضيته يا سليم ولا عريس لي سواك . والان . والان
 قد رفع الغشاء عن عيني فجئت اليك . قد خرجت من
 هذا المنزل ولن اعود اليه . قد جئت لكي اضمك بذراعي
 ولا توجد قوة في هذا العالم ترجعني الى ذراعي الرجل
 الذي زُففت اليه كرهاً ويأساً . قد تركت العريس
 الذي اختاره لي الكذب بعلاً . وتركت الوالد الذي
 اقامه القدر ولياً وتركت الزهور التي ضفرها الكاهن

اكليلاً . وتركت الشرائع التي حبكتها التقاليد قيوداً .
 قد تركت كل شيء في هذا المنزل المملوء بالسكر والخلاعة
 وأتيت لاتبعك الى ارض بعيدة الى اقاصي العالم . الى
 مكان الجن الى قبضة الموت تعال نسرع يا سليم من
 هذا المكان مستترين بوشاح الليل هلم نسير الى الساحل
 ونركب سفينة تحملنا الى بلاد بعيدة مجهولة تعال نمشي
 الان فلا يجيء الفجر الا ونحن في مأمن من ايدي العدو
 انظر انظر هذه الحلى الذهبية وهذه القلائد والخواتم
 الثمينة وهذه الجواهر النفيسة فهي تكفل مستقبلنا وتكفي
 لنعيش باثمانها كالامراء . . لماذا لا نتكلم يا سليم ؟ لماذا
 لا تنظر اليّ ؟ لماذا لا تقبلني ؟ أسمع انت صراخ قلبي
 وعويل نفسي - الا تصدق باني هجرت عريسي وابي
 وامي وجئت باثواب العرس لكي اهرب معك ؟ تكلم او

هلمّ نسرع فهذه الدقائق اثمن من حبات الالماس واغلى
من نيجان الملوك»

كانت العروس تتكلم وفي صوتها نغمة اعذب من
همس الحياة وامرّ من عويل الموت وألطف من حفيف
الاجنحة وأعمق من أنين الامواج — نغمة تُموج نبضاتها
بين اليأس والامل واللذة والالم والفرح والشقاء وكل ما
في صدر الامرأة من الاميال والعواطف

اما الشاب فكان يسمع وفي داخل نفسه يتصارع
الحب والشرف . ذلك الحب الذي يجعل الوعر سهلاً
والظلام نوراً وذلك الشرف الذي يقف امام النفس
ويثنيها عن رغائبها وامياها . ذلك الحب الذي ينزله الله
على القلب وذلك الشرف الذي تسكبه تقاليد البشري
الدماع .

و بعد احيانٍ خرساء هائلة شبيهة بالاجيال المظلمة
التي تتمايل فيها الامم بين النهوض والاضمحلال رفع
الشاب رأسه وقد تغلب شرف نفسه على اميالها وحوّل
عينيه عن الصبية الخائفة المترقبة وقال بهدوء « ارجعي
ايتها الامراة الى ذراعي عريسك فقد قضي الامر ومحت
اليقظة ما صورته الاحلام - اسرعي الى احضان
المسرات قبل ان تراك اعين الرقباء فيقول الناس قد
خانت عريسها في ليلة العرس مثلما خانت حبيبها ايام
البعاد »

فارتعشت العروس لهذه الكلمات الجارحة وتعلمت
كراهة ذابلة امام الريح ثم قالت متوجعة « لا اعود الى
هذا المنزل وبي رمق من الحياة قد خرجت منه الى
الابد . قد تركته وكل من فيه مثلما يترك الاسير ارض

المنفى . فلا تبعدني عنك ولا ثقل بانني خائفة . لان يد
 الحب التي مزجت روحي بروحك هي اقوى من يد
 الكاهن التي اسلمت جسدي الى مشيئة العريس . ها
 قد طوقت ذراعي حول عنقك فلا تحملها القوات وقربت
 نفسي الى نفسك فلا يفرقها الموت »

فقال الشاب محاولاً الخلاص من ذراعيها متكلفاً
 اظهار المقت والاشمئزاز « ابتعدي عني ايها المرأة فقد
 سلوتك . نعم سلوتك . وكرهتك . وتعلقت بهوى غيرك
 فلم يقل الناس غير الصحيح . هل سمعت . ماذا اقول ؟
 قد سلوتك . حتى نسيت وجودك . وكرهتك . حتى ابت
 نفسي مرآك . فابتعدي عني ودعيني اذهب في سبيلي
 وعودي الى عريسك . وكوني له زوجةً أمينةً »
 فقالت الصبية متفجعة « لا لا اصدق كلامك فانز

تجني وقد قرأت معنى الحب في عينك وشعرت بلامسه
 عندما لمست جسدك انت تجني وتجني وتجني مثلما
 احبك = فانا لا اترك هذا المكان الا بجانبك ولن
 ادخل هذا المنزل وفي نفسي بقية من الارادة . قد جئت
 لكي اتبعك الى آخر الارض فسر امامي او ارفع يدك
 واهرق دمي»

فقال الشاب وقد رفع صوته عن ذي قبل
 « اتركيني ايتها الامراة والا صرخت باعلى صوتي وجمعت
 في هذه الحديقة اولئك الناس المدعوين الى افراح
 عرسك وأريتهم عارك وجعلتك مضغة مرة في احناكهم
 ومثلاً قبيحاً على السنتهم ووقوفت نجبية التي احبها قلبي
 تسخر بك وتبتسم فارحة بانتصارها مستهزئة بانغلابك
 قال هذا وامسك بذراعها ليعدها عنه فتغيرت

ملاحمها وابتقت عينها وتحوات كليتها من الاستعطاف
والرجاء والتوجع الى الغضب والقساوة وصارت كلبوة
فقدت اشبالها او كبحر اثارته اعماقه الزوابع ثم صرخت
(من هي التي نمتع بمحبك بعدي واي قلب يسكر بقبل
شفتيك غير قلبي !) .

لفظت هذه الكلمات وانشلت من بين اثوابها خنجراً
سديناً وانهدته بصدرة بسرعة البرق فهوى وسقط على
الارض كعصن قصفته العاصفة فانحنت فوقه والخنجر
في يدها يقطر دماً ففتحه عينه المغمورتين بظل الموت
وارتعتت شفتاه وخرجت هذه الكلمات مع انفاسه
الضعيفة (اقتربي الآن يا حبيبي . اقتربي يا ليلي ولا
تتركيني . الحياة اضعف من الموت والموت اضعف من
الحب . اسمعي . اسمعي قهقهة الفارحين بعرسك . اسمعي

رنين كوء وسهم يا حبيبتى . لقد انقذتني يا ليلي من
 قساوة هذه القهقهة ومرارة تلك الكوء وس فدعيني اقبل
 اليد التي كسرت قيودي . قبل شفتي . قبل شفتي
 اللتين تكلفتا الكذب وأخفتا عواطف قلبي . اغمضي
 اجفاني الذابلة باصابعك المغموسة بدمي . وعندما تطير
 روحي في الفضاء ضعي الخنجر في يميني وقولي لهم قد
 انتحر ياساً وحسداً . قد احببتك يا ليلي ولم احب سواك
 ولكنني رأيت تضحية قلبي وسعادتي وحياتي افضل من
 الهرب بك في ليلة عرسك . . قبليني يا حبيبة نفسي
 قبل ان يرى الناس جثتي . . قبليني . . قبليني يا ليلي)
 ووضع المصروع يده فوق قلبه المطعون ولوى عنقه
 وفاضت روحه !

فرفعت العروس رأسها والتفتت نحو المنزل وصرخت

بصوت هائل (تعالوا . تعالوا ايها الناس فهنا العرس وهذا
العريس هلموا لتريكم مضجعنا الناعم استيقظوا ايها النيام
وانتبهوا ايها السكارى واسرعوا لتريكم اسرار الحب والموت
والحياة)

تموج صراخ العروس في زوايا ذلك المنزل حاملاً
كلماتها الى آذان المخنفلين المغبوطين فارتعشت ارواحهم
واسمعوا هنيهة كأن الصحو قد باغت نشوتهم ثم تراكضوا
مسرعين من ابواب المنزل ومخارجه وساروا ملتفتين يمينا
وشمالاً حتى اذا ما رأوا جثة المصروع والعروس الجاثية
بقربها تراجعوا مذعورين الى الورا ولا احد منهم يجسر
على استقصاء الخبز كأن منظر الدماء المنبعثة من صدر
القتيل ولمعان الخنجر في يد العروس قد عقد السننهم
واجمد الحياة في اجسادهم

فالتفتت العروس اليهم وقد اتسحت ملامحها بهيبة
محزنة وصرخت قائلة (اقربوا ايها الجبناء ولا تخافوا خيال
الموت فهو عظيم لا يدنو من صغارتكم . اقربوا ولا
ترتجفوا جزعاً من هذا الخنجر فهو آلة مقدسة لا تلامس
اجسادكم القذرة وصدوركم المظلمة . انظروا هذا الفتى
الجميل المتسربل بحلة العرس — هو حبيبي وقد قتله
لانه حبيبي — هو عريس وانا عروسته وقد بجثنا فلم نجد
لنا مضجعاً يليق بعناقنا في هذا العالم الذي جعلتموه ضيقاً
بتقاليدكم ومظالمًا بجهالتكم وفساداً بلهائكم ففضلنا الذهاب
الى ما وراء الغيوم . اقربوا ايها الضعفاء الخائفون وانظرو
لعنكم ترون وجه الله منعكساً على وجهينا وتسمعون صوته
العذب منبثقاً من قلبينا — اين هي تلك المرأة الخبيثة
الحسودة التي وشت اليّ بحبيبي وقالت بانه شغف بها
وسلاني وتعلق بجهي لينساني . قد توهمت تلك العاهرة
بانها ظفرت عندما رفع الكاهن يده فوق رأسي ورأس

نسيبها • اين نجيبة المحتمالة — اين تلك الأفعى الجهنمية —
 دعوها تقترب الآن وترى بانها قد جمعتمكم لتفرحوا
 بعرض حبيبي وليس بعرض الرجل الذي اختارته لي •••
 انتم لا تفهمون كلامي لان اللجة لا تعي اغاني الكواكب
 لكنكم سوف تخبرون أبناءكم عن المرأة التي قتلت حبيبها
 في عرسها • سوف تذكرني وتلعنوني بشفاهكم الاثيمة
 اما احفادكم فسوف يباركونني لان الغد سيكون للحق
 والروح ••• وانت ايها الرجل الغبي الذي استخدم الحيلة
 والمال والخبائثة ليصيرني له زوجة — انت رمز هذه الامة
 النعيسة التي تبحث عن النور في الظلمة وتترقب خروج
 الماء من الصخرة وظهور الورد من القطرب — انت رمز
 هذه البلاد المستسلمة لغباوتها استسلام الاعمى الى قائده
 الاعمى — انت ممثل الرجولية الكاذبة التي تقطع الاعناق
 والمعاصم توصلاً الى العقود والاساور • انا اغتفر لك
 صغارتك لان النفس الفارحة بندهاها من هذا العالم تغتفر

جميع زلات هذا العالم «

حينئذ رفعت العروس خنجرها نحو العلاء ونظير
ظامى يقرب حافة الكأس الى شفثيه اغمدته بعزم في
صدرها وهبطت بجانب حبيبها نظير زنبقة قطع عنقها حد
المنجل . فتملمت النساء وصرخن صراخ الخوف والألم
واغمي على بعضهن وتصاعد ضجيج الرجال من كل ناحية
واقربوا من المصروعين بوجل وهيبة

ف نظرت اليهم العروس المنازعة وقالت ونجيع الدماء
ينهل بغزارة من صدرها البلوري « لا تقتربوا ايها العاذلون
ولا تفصلوا بين جسدينا وان حاولتم فالروح الحائمة فوق
روؤوسكم تقبض على اعناقكم وتخنقكم بعنف وقساوة .
دعوا هذه الارض الجائعة تلوك جسدينا لقمة واحدة .
دعوا تخفينا وتحميننا في صدرها مثما تحمي البزور من
ثلوج الشتاء حتى يجيء الربيع «

ولزت العروس الى حبيبها والقت شفثيها على شفثيه

الباردتين وخرجت هذه الكلمات المتقطعة مع انفاسها
 الاخيرة « انظر يا حبيبي - انظر يا عريس نفسي كيف
 وقف الحساد حول مضجعنا - انظر عيونهم المحدقة بنا
 واسمع صريف اسنانهم وتكسير ضلوعهم . قد انتظرتني
 طويلاً يا سليم فهاءنذا . قد كسرت القيود وفككت
 السلاسل فلنسرعن نحو الشمس فقد طال وقوفنا في الظل
 ها قد امحت الرسوم وانحجبت الاشياء فلم اعد ارى
 سواك يا حبيبي - ها شفتاي فاقتبل انفاسي الاخيرة .
 هلم نذهب يا سليم فقد رفع الخب اجنحته وسبح امامنا
 نحو دائرة النور »

والقت العروس صدرها على صدر حبيبها فامتزجت
 دماؤها بدمائه واحنت رأسها على عنقه وظلت عيناها
 .محدقتين بعينه

ولبت الناس صامتين هنيهة وقد اصفرت وجوههم
 وترأخت ركبهم كأن هيبة الموت قد سلطتهم القوة والحراك

فتقدم اذ ذاك الكاهن الذي صفر بتعازيه اكاليل
ذلك العرس و اشار يمينه نحو القتيلين ونظر نحو القوم
المذهولين وخطبهم بصوت خشن قائلاً " ملعونة مي
الايدي التي تمد الى هذين الجسدين الملطخين بدماء
الجريمة والعار . و ملعونة هي الاعين التي تذر دموع
الحزن على هالكين قد حملت الابلسة روحهما الى الجحيم
لتبقى جثة ابن سادوم وابنة عمورة مطروحتين على هذا
التراب الدنس المجبول بدمائهما حتى تتقاسم لجانهما الكلاب
وتذري عظامهما الرياح . اذهبوا الى مساكنكم ايها
الناس واهربوا من الرائحة المنتنة المتساعدة من داخل
قلبين جبلتهما الخطيئة وسحقتهما الرذيلة . تفرقوا ايها
الواقفون بقرب هاتين الجيفتين وانصرفوا مسرعين قبل
ان تلسعكم السنة النار الجهنمية ومن يبق منكم ههنا يكن
محروماً ومرذولاً فلا يدخل الهيكل الذي يركع فيه
المؤمنون ولا يشترك بالعملاة التي يقدمها المسيحيون ! »

فقدمت سوسان تلك الصبية التي بعثتها العروس
رسولاً الى حبيبها ووقفت امام الكاهن ونظرت اليه بعينين
مغرورقتين بالدموع وقالت بشجاعة " انا ابقى ههنا ايها
الكافر الاعمى وانا احرسهما حتى يجيء الفجر وانا احفر
لها قبراً تحت هذه الاغصان المتدلية . فان منعمت عني
محفرأ مزقت صدر الارض باصابعي وان ربطتم ساعدي
حفرته باسناني اسرعوا من هذا المكان المملوء برائحة البخور
واللبان فالخنازير تأبى استنشاق العطور الزكية . والاصوص
الخاطفة تهاب رب البيت وتخشى قدوم الصباح . اسرعوا
انى مضاجعكم المظلمة لان اغاني الساروفيم والكاروويم
التموجة فوق شهيدي الحب لا تدخل آذانكم المسدودة
بالتراب »

وتفرق الناس من امام وجه الكاهن العبوس ولبثت
تلك الصبية واقفة بقرب الجثتين الهامدين كأنها ام
رقوب تحرس طفلها في سكينه الليل . ولما توارى الجمع
وخلا ذلك المكان استسلمت للبكاء والنحيب

خليل الكافر

- ١ -

كان الشيخ عباس بين سكان تلك القرية المنزوية في
شمال لبنان كالاميريين الرعية . وكان منزله الفخيم القائم
بين اكوأخهم الحقيرة يشابه الجبار الواقف بين الاقزام .
وكانت معيشته ممتازة عن معيشتهم بميزة السعة عن العوز
واخلاقه مختلفة عن اخلاقهم باختلاف القوة عن
الضعف

ان تكلم الشيخ عباس بين اولئك الفلاحين احنوا
روءوسهم ايجاباً كأن القوى العقلية قد اتدبته ممثلاً لها
واتخذت لسانه ترجماناً عنها . وان غضب ارتجفوا جزعاً
وتبددوا من امام وجهه مثلما تراكض اوراق الخريف

امام الارياح . وان صفع خد رجل منهم ظلَّ ذلك
الرجل جامداً صامتاً كان الضربة قد أتت من السماء
فمن الكفر ان يتجاسر ويرفع عينيه ليرى من انزلها . وإن
ابتسم لرجل اخر قال الجميع ما اسعده فتىً فقد رضي
عنه الشيخ عباس .

ولم يكن استسلام اولئك المساكين الى الشيخ عباس
وخوفهم قساونه صادرين عن ضعفهم وقوته فقط بل كانا
ناجيين عن فقرهم واحتياجهم اليه . لان الحقول التي
كانوا يحرثونها والاكواخ التي يسكنونها كانت ملكه وقد
ورثها عن ابيه وجدّه مثلما ورثوا الفقر والتعاسة من ابائهم
وجدودهم . فكانوا يفلحون الارض ويزرعونها
ويحصدونها تحت مراقبته ولا يحصلون لقاءً اتعابهم
وجهادهم الا على جزء من الغلة لا يكاد ينقذهم من اظافر
الجوع . وقد كان اكثرهم يحتاج الخبز قبل انقضاء ايام

الشتاء الطويلة فيذهب اليه الواحد بعد الاخر ويتضرع امامه باكياً مسنطحاً لكي يقرضه ديناراً او مكيالاً من الخنطة فكان الشيخ عباس يجيب سوء لهم مسروراً العلمه بانه سيسئوفي الدينار دينارين ومكيال الخنطة مكيالين عندما تجيء ايام البيادر والموسم . وهكذا كان يبقى اولئك التعساء مثقلين بديون الشيخ عباس مكبلين بما جرتهم اليه خائفين غضبه طالبين رضاه

- ٢ -

قدم الشتاء بثلوجه وعواصفه وخلت الحقول والاوودية الا من الغرمان الناعبة والاشجار العارية فلزم سكان تلك القرية اكوأخهم بعد ان اشبعوا اهراء الشيخ عباس من الغلة وملاءوا آنته من عصير الكروم واصبحوا

ولا عمل لهم يفضون الحياة بجانب المواقد متذكّرين مآتي
الاجيال الغابرة مرددين على مسامع بعضهم حكايات
الايام والليالي

انقضى، كانون الاول وقضى العام العجوز متنهداً
انفاسه الاخيرة في الفضاء الرمادي وجاءت الليلة التي
يتوّج فيها الدهر رأس العام الطفل ويجلسه على عرش
الوجود .

توارى النور الضئيل وغمرت الظلمة البطاح والادوية
وابتدأت الثلوج تنهمر بغزارة والعواصف تصفر وتتسارع
ملععة من اعالي الجبال نحو المنخفضات حاملة الثلوج
لتخزينها في الوهاد فترتعش لهولها الاشجار وتتململ امامها
الارض . مزجت الارياح بين ما تساقط من الثلج في
ذلك النهار والساقط منه في تلك الليلة حتى اصبحت
الحقول والطلول والممرات كصفحة واحدة بيضاء

يكتب عليها الموت سطوراً مبهمه ثم يحوها . وفصل
الضباب بين القرى المنتورة على كتفي الوادي وتوارت
الانوار الضئيلة التي كانت تشعشع في نوافذ البيوت
والاكواخ الحقيمة وقبضت الرعبة على نفوس الفلاحين
وانزوت البهائم بقرب المعالف واختبأت الكلاب في
القراني ولم يبق سوى الريح يخطب وتضج على مسامع
الكهوف والمغاير فيتصاعد صوتها الرهيب من اعماق الوادي
تارة وطوراً ينقض من اعالي قمم الجبال فكان الطبيعة قد
غضبت لموت العام العجوز فقامت تأخذ بثاره من الحياة
المختبئة في الاكواخ وتحاربها بالبرد القارص . والزمهرير
الشديد .

ففي هذه الليلة الهائلة وتحت هذا الجو الثائر كان فتى
في الثانية والعشرين من عمره يسير على الطريق المتصاعدة

بتدرج من دير قزحيا (١) الى قرية الشيخ عباس وقد
 ايبس البرد مفاصله وانتزع الجوع والخوف قواه واخفت
 الثلوج ثوبه الاسود كأنها تريد ان تكفنه قبل ان تميته
 فكان يخطو الى الامام والارياح تصدّه وترجعه الى
 الورا كأنها أبت ان تراه في منازل الاحياء وتثبت
 الطريق الوعرة باقدامه فيسقط ثم ينهض ثم يصرخ باعلى
 صوته مستغيثاً ثم يخرسه البرد فيقف صامتاً مرتجفاً فكانه
 والعناصر المتحاربة كالامل الضعيف بين اليأس الشديد
 والحزن العميق . او كعصفور مكسور الجناحين سقط في
 النهر فحمله التيار الغضوب الى الاعماق .

(١) هو اغنى واشهر دير في لبنان تقدر حاصلاته
 بالوف الدنانير يسكنه عشرات من الرهبان المعروفين
 بالبلديين ، وقزحيا لفظة سريانية معناها ,, فردوس
 الحياة“

وظل الشاب سائراً والموت يتبعه حتى خارت قواه
وانحطت عزيمته وتجمدت الدماء في عروقه فارتمى على
الثلوج وصرخ صوتاً هائلاً هو بقية الحياة في جسده .
صوت خائف قد رأى خيال الموت وجهاً لوجه . صوت
منازع قانط اتلفته الظلمة وقبضت عليه العاصفة لترمي
به الى الهاوية . صوت محبة الكيان في فضاء العدم

— ٣ —

في الجهة الشمالية من تلك القرية كوخ صغير منفرد
بين الحقول تسكنه امرأة تدعى راحيل مع ابنتها مريم
غير المتجاوزة الثامنة عشرة من سننها . هذه المرأة هي
ارملة سمعان الرامي الذي وُجد قتيلاً في البرية منذ خمسة
اعوام ولم يُعرف قاتله بعد .

كانت راحيل مثل جميع الارامل الفقيرات تعيش
 بالاجتهاد والعمل مخافة الموت والعناء . فكانت تخرج
 ايام الحصاد وتلتقط السنابل المتروكة في الحقل وفي ايام
 الخريف كانت تجمع فضلات الارانب المنسية في البساتين
 وفي الشتاء كانت تغزل الابر وتخييط الاثواب لقاء
 دريهمات قليلة او ميكال من الذرة . وكانت جميع اعمالها
 مقرونة بالثبات والصبر والاعتناء . اما ابنتها مزيم فكانت
 صبية جميلة هادئة تشاطر والدتها الاتعاب وتساهمها اعمال
 البيت

ففي تلك الليلة المخيفة التي وصفناها كانت راحيل
 وابنتها جالسين بقرب موقد قد تغلب البرد على حرارته
 واكتنف الرماد حجره . وفوق رأسيهما سراج ضعيف
 يبعث اشعته الصفراء الضئيلة الى قلب الظلمة مثلما تبعث

الصلاة اشباح التعزية الى كبد الفقير الحزين
 انتصف الليل والمرأتان جالستان تسمعان ولولة
 الارياح خارجاً . ومن وقت الى اخر كانت الصبية
 تقف وتفتح الكوة الصغيرة وتنظر نحو الفضاء المظلم ثم
 تعود الى مكانها مضطربة مرتعبة من غضب العناصر
 في تلك الدقيقة تحركت الصبية فجأة كأنها
 استيقظت من سبات نوم عميق والتفت بوجل نحو امها
 وقالت بسرعة « هل سمعت يا اماه . هل سمعت صوت
 صارخ مستغيث »

فرفعت الوالدة رأسها واصغت هنيهة ثم اجابت « لا لم
 اسمع سوى عويل الارياح يا ابنتي »
 فقالت الصبية « انا قد سمعت صوتاً اعمق من هزيم
 الريح وأمر من عويل العاصفة »

قالت هذه الكلمات وانتصبت واقفة وفتحت الكوة
واصغت دقيقة ثم قالت « قد سمعت الصراخ ثانية يا امامه »
فاجابت الام وقد اسرعت مرتاعة نحو النافذة (وانا قد
سمعت ايضاً ٠٠ تعالي نفتح الباب وننظر ٠٠ اوصدي
النافذة كيلا تطفئ الريح السراج)

قالت هذا والتفت برداء طويل وفتحت الباب
وخرجت بقدم ثابتة وبقية مريم واقفة في الباب والهواء
يتلاعب بجذائل شعرها

مشت راحيل بضع خطوات فالحة الثلج بقدميها ثم
وقفت ونادت (من الصارخ = ابن المسغيث) فلم يجبهها
احد ثم رددت كلماتها هذه ثانية وثالثة واذ لم تسمع غير
صراخ الزوبعة تقدمت الى الامام بشجاعة ملتفتة الى كل
ناحية حاجية وجهها من تموجات الريح العنيفة . ولم تسر

رمية سهم حتى رأت اثر اقدام غارقة في الثلج قد
 اوشكت الارياح ان تمحوها فاتبعها بسرعة جازع متروّب
 وبعد هنيهة نظرت فرأت امامها جسداً مطروحاً على
 الثلج كرقعة سوداء على ثوب ناصع البياض . فتقدمت
 وذرت الثلج عنه واسندت رأسه على ركبتيها ووضعت
 يدها على صدره واذا شعرت بنبضات قلبه المتهاونة
 التفتت نحو الكوخ وصرخت قائلة (هلمي يا مريم هلمي
 الى معونتي فقد وجدته)

فخرجت مريم من البيت متبعة أثر اقدام والدتها
 مرتعشة من البرد والخوف حتى اذا ما بلغت المكان ورأت
 الشاب الملقى بلا حراك على الثلج نأوهت وصرخت بلهفة
 وتوجع فقالت الام وقد وضعت يديها تحت ابطيه (هو
 حيّ فلا تخافي بل امسكي باطراف اثوابه وتعالى نحمّله

(الى البيت)

حملت المرأتان الفتى والارياح الشديدة تصدهما
والثلوج تلمسك باقدامهما حتى اذا ما بلغنا به الكوخ القناه
بجانب الموقد وأخذت الام تفرك اعضاءه المتجلدة والابنة
تجفف باطراف ثوبها شعره البليل واصابعه الباردة . فلم
تمر بضع دقائق حتى عادت اليه الحياة فتحرك قليلاً
وارتعت اجفانه وتنهد تنهيدة عميقة بثت الامل بنجاته
في قلبي المرأتين الشفوقتين . فقالت مريم بعد ان حلت
سيور حدائه المهشم وخلعت عباءته البليلة (انظري يا امه
انظري ملابسه فهي شبيهة باثواب الرهبان) فالتفت
راحيل وقد وضعت في الموقد غمراً من القضبان اليابسة
وقالت مستغربة (ان الرهبان لا يخرجون من الدير في
مثل هذه الليلة الخيفة فاي شيء يا ترى جعل هذا

المسكين يخاطر بحياته ؟)

فقات الصبية مستدركة (ولكن هو امرد يا اماء
وللرهبان لحي كشيقة) فنظرت اليه الوالدة وقد انسكبت
الرافة الوالدية من عينيها وقالت متنهدة (جفني قدميه
جيداً يا ابنتي راهباً كان ام مجرمًا)

وفتحت راحيل الخزانة الخشبية واخرجت منها جرة
صغيرة مملوءة خمراً وسكبت منها في اناء من الفخار ثم
قالت لابنتها (اسندي رأسه يا مريم لنجرعه قليلاً من
الخمر فينتعش وتعود الحرارة الى جسده) .

قربت راحيل حافة الطاس الى شفطي الشاب وجرعته
قليلاً ففتح عينيه الكبيرتين ونظر الى منقذيه لأول مرة
نظرة لطيفة محزنة قد انبعثت مع دموع الشكر ومعرفة
الجميل = نظرة من شعر بلامس الحياة بعد ان كان بين

مخالب الموت - نظرة الامل بعد اليأس . ثم الوى عنقه
 وخرجت هذه الكلمات من بين شفثيه المرتعشتين
 (ليبارك كما الله)

فقات راحيل وقد وضعت يدها على كتفه (لا
 تزعج نفسك بالكلام يا اخي بل ابق صامتاً حتى تعود
 اليك القوة)

وقالت مريم (اتكبي يا اخي الى هذا المسند واقرب
 قليلاً من الموقد)

فاتكأ الشاب متنهداً وبعد دقيقة ملات راحيل
 الطاس خمرأ وسقته ثانية ثم التفتت نحو ابنتها وقالت
 (ضعي جبته بقرب النار لتجف) ففعلت مريم ثم جلست
 تنظر اليه بجنو وشفقة كأنها تريد ان تبث بنظراتها
 الحرارة والقوة في جسده النحيل

واحضرت راحيل اذ ذاك رغيفين من الخبز وقصعة
 مملوءة دبساً وطبقاً عليه بعض الثمار المجففة وجلست
 بجانبه تطعمه بيدها لقمأ صغيرة مثلما تفعل الام وطفلها.
 حتى اذا اكتفى من الطعام وشعر بشيء من النشاط
 استوى جالساً على البساط فانعكست اشعة النار الوردية
 على وجهه المصفر وتلعت عيناه الخزينتان ثم قال هازلاً
 رأسه يهدوء (الرحمة والقساوة تنصارعان في القلب
 البشري مثلما تتحارب العناصر في فضاء هذه الليلة المظلمة
 ولكن سوف تغلب الرحمة على القساوة لانها الهية وسوف
 تمر مخاوف هذه الليلة بمجبيء النهار)

وسكت الشاب دقيقة ثم زاد بصوت منخفض يكاد
 لا يسمع (يد بشرية دفعتني الى الهوان ويد بشرية
 خلصتني فما اشد قساوة الانسان وما اكثر رأفته)

فقات راحيل بصوت تمتزج بمقاطعه عاطفه الامومه
بعذوبة الطمانينه (كيف تجرأت يا اخي وتركت الدير
في هذه الليله التي اتخافها الذئب وتنزوي بالكهوف
وتهاها العقبان فتختبيء بين الصخور ؟)

فغمض الشاب عينه كأنه يريد ان يعيد باحفانه
الدموع الى اعماق قلبه ثم قال (للشعاب اوجرة ولطيور
السماء اوكار واما ابن الانسان فليس له اين يسند رأسه)
فقات راحيل . هكذا قال يسوع الناصري عن
نفسه عندما طلب اليه احد الكتبة ان يتبعه الى حيث
يذهب .

فاجاب الشاب . وهكذا يقول كل من يريد ان
يتبع الروح والحق في هذا الجيل المملوء بالكذب والرياء
والفساد .

فسكنت راحيل مفكرة بمعنى كلماته ثم قالت بشيء
من التردد . ولكن في الدير غرف عديدة رحبة وخزائن
طاخة بالفضة والذهب واقبية مملوءة بالغلة والحمور
وزرائب غاصة بالعجول والكبوش المسمنة فإي أمر
جعلك تترك جميع هذه الأشياء وتخرج في مثل هذه
الليلة؟»

فقال الشاب متهدأ . قد تركت جميع هذه الأشياء
وخرجت كرهاً من الدير .

فقلت راحيل (ان الراهب في الدير نظير الجندي
في ساحة الحرب يزجره رئيسه فينحني ضامتاً ويأمره
فيطيع مسرعاً وقد سمعت بان الرجل لا يصير راهباً الا
اذا نزع عنه الارادة والفكر والميل وكل ما يختص بالنفس
ولكن الرئيس الصالح لا يطلب من مروءسيه فوق طاقتهم

فكيف يطلب منك رئيس دير قزحيان ان تسلم حياتك
الى العواصف والثلوج ؟)

فاجاب الشاب « ان الرجل لا يصير راهباً في عرف
رئيسه الا اذا كان مثل آله عمياء خرساء فاقدة الحس
والقوة . اما انا فقد خرجت من الدير لانني لست آله
عمياء بل انساناً يرى ويسمع » .

فاحدقت به راحيل ومريم كأنهما قد رأتا في وجهه
سراً خفياً يريد كتمانهُ وبعد هنيهة قالت الوالدة مستغربة
« أخرج الانسان الذي يرى ويسمع في مثل هذه الليلة
التي تعمي العيون وتضم الآذان ؟ »

فتنهذ الشاب واحنى رأسه على صدره وقال بصوت
عميق « خرجت مطروداً من الدير »

فقالت راحيل بدهشة « مطروداً ؟ ! » .

وردت مريم هذه الكلمة متأوهة

فرفع الشاب رأسه وقد ندم على اظهاره الحقيقة
 للمرأتين وخاف ان تتحول رأفتها عليه الى استياء
 واستهجان . ولكنه نظر فرأى في عينيهما اشعة الشفقة
 متموجة مع محبة الاستطلاع فقال بصوت مخنوق « نعم
 خرجت مطروداً من الدير لانني لم استطع ان احفر قبوري
 بيدي . لان قلبي قد تعب في داخلي من متابعة الكذب
 والرياء . لان نفسي ابت ان تنعم باموال الفقراء
 والمساكين . لان روحي قد امتنعت عن التلذذ بخيرات
 الشعب المستسلم الى الغباوة . خرجت مطروداً لان
 جسدي لم يعد يجد راحة في الغرف الرحبة التي بناها
 سكان الاكواخ . لان خوفي لم يعد يقبل الخبز المعجون
 بدموع اليتيم والارملة . لان لساني لم يعد يتحرك بالصلاة

التي يبيعها الرئيس باموال الموءمنين والبسطاء . خرجت
مطروداً كالابريص القذر لاني رددت على مسامع القسس
والرهبان آيات الكتاب الذي جعلهم قسسا ورهبانا «

وسكت الشاب وظلت راحيل ومريم ناظرتين اليه
مسغرتين كلامه محذقتين بوجهه الجميل الحزين متلفنتين
بين الآونة والاخرى الى بعضهما كأنهما تتساءلان
بالسكينة عن الاسباب الغريبة التي جاءت به اليهما . حتى
اذا ما نمت محبة الاستقصاء في قلب الوالدة نظرت اليه
بانعطاف وسألته قائلة « ابن ابوك وامك يا اخي — هل
هما حيان » .

فاجاب الشاب والنصات الموجهة تقطع الفاظه
ليس لي ابٌ ولا امٌ ولا اخت ولا مسقط رأس .
فتهدت راحيل متأثرة وحولت مريم وجهها نحو

الحائط لتخفي دمة محرقة استقطرتها الشفقة من
 اجفانها فنظر اليها الشاب نظرة المغلوب الى منجده
 وقد انتعشت نفسه برقة عواطفها مثلما تنتعش الزهرة
 النابتة بين الصخور عندما يسكب الصباح قطرات الندى
 في قلبها ثم رفع رأسه وقال . مات ابي وامى قبل ان
 ابلغ السابعة من عمري فأخذني كاهن القرية التي ولدت
 فيها الى دير قزحيا فسرّ الرهبان بي وجعلوني راعياً للبقر
 ولما بلغت الخامسة عشرة البسوني هذا الثوب الاسود
 الحشن واوقفوني امام المذبح قائلين . اقسم بالله وقديسيه
 بانك قد نذرت الفقر والطاعة والعفة . فرددت كلامهم
 قبل ان افهم مفاد كلامهم وقبل ان ادرك معاني الفقر
 والطاعة والعفاف وقبل ان ارى السبيل الضيقة التي
 سيروني عليها . كان اسمي خليلاً فصار الرهبان منذ ذلك

الحين يدعونني الاخ مبارك ولكنهم لم يعاملوني قط كأخ
 لهم كانوا يتنعمون باللحوم والمأكـل الشهية ويطعمونني
 الخبز اليابس والبقول الجففة . وينلذون بالخمر
 والمشارب الطيبة ويسقونني الماء ممزوجاً بالدموع وينضجون
 على الاسرة الناعمة وينيمونني على فراش حجري في غرفة
 مظلمة باردة بجانب زرائب الخنازير . فكنت اقول في
 نفسي : متى اصير راهباً ياترى فاشارك هولاء السعداء
 بغطتهم واصبح غايقاً بملذاتهم ومسراتهم فلا تقطع قلبي
 رائحة الطعام ولا تعذب كبدي اوان الخمر ولا ترتعش
 روحي لصوت ارنيس . ولكن باطلاً كنت اتنى واحلم
 لانني بقيت ارعى البقر في البرية وانقل الحجارة الثقيلة
 على ظهري واحفر التراب بساعدي - بقيت افعل كل ذلك
 لقاء الخبز الدنيء والمأوى الضيق لانني لم اكن اعلم بانه يوجد

مكان غير الدير يمكن ان اعيش فيه لانهم علموني الكفر
 بكل شيء الا معيشتهم . وسمموا نفسي بنقيع اليأس
 والاستسلام حتى ظننت بان هذا العالم هو بحر احزان
 وشقاء وان الدير هو ميناء الخلاص .

واستوى خليل جالساً وانبسطت ملامحه المنقبضة ونظر
 كأنه رأى شيئاً جميلاً منتصباً امامه في ذلك الكوخ اما
 راحيل ومريم فلبثنا صامتتين محذقتين به وبعد هنيهة
 عاد فقال . ان السماء التي شاءت فاخذت والدي ونفتني
 يتيماً الى المدير لم تشأ ان اصرف العمر كله كالاغبي السائر
 في المعابر الخطرة ولم ترض بان اكون عبداً تعيساً
 متصاعراً الى نهاية الحياة ففتحت عيني واذني وأرتني النور
 مشعشعاً واسمعتني الحقيقة متكلمة .

فهزت راحيل رأسها اذا ذاك وقالت . أيوجد نور

غير النور الذي تسكبه الشمس على جميع الناس . وهل
بامكان البشر ان يعرفوا الحقيقة ؟

فاجاب خليل قائلاً . النور الحقيقي هو ذاك الذي

ينبثق من داخل الانسان وبين سرائر النفس للنفس
ويجعلها فارحة بالحياة مترنمة باسم الروح . اما الحقيقة فهي
كالنجوم لا تبدو الا من وراء ظلمة الليل . الحقيقة هي
مثل جميع الاشياء الجميلة في هذا العالم لا تظهر مفاعيلها
المستحبة الا لمن شعر بناثيرات البطل القاسية . الحقيقة هي
تلك العاطفة الخفية التي تعلمنا ان نفرح بايماننا وتجعلنا
نتمنى ذلك الفرح نفسه لجميع الناس .

فقات راحيل . كثار هم الذين يعيشون حسب

العاطفة الخفية الكائنة في قلوبهم وكثار هم الذين
يعتقدون بان هذه العاطفة هي ظل الناموس الذي سنه

الله للانسان ولكنهم لا يفرحون قط بايامهم بل يظنون
تعباً حتى الموت

فاجابها خليل قائلاً . باطلة هي الاعتقادات والنعاليم
التي تجعل الانسان تعيساً في حياته وكذابة هي العواطف
التي تقوده الى اليأس والحزن والشقاء . لان واجب
الانسان ان يكون سعيداً على الارض وان يعلم سبل
السعادة ويكرز باسمها اينما كان . ومن لا يشاهد ملكوت
السموات في هذه الحياة لن يراه في الحياة الآتية . لاننا
لم نحنى هذا العالم كالمنفين المرذولين بل جننا كالاطفال
الاغبياء لكي نتعلم من محاسن الحياة واسرارها عبادة
الروح البكي الخالد واستطلاع خفايا نفوسنا . هذه هي
الحقيقة التي عرفتها عندما قرأت تعاليم يسوع الناصري
وهذا هو النور الذي انبثق من داخلي وأبان لي الدير

ومن فيه كهوة مظلمة تنبعث من اعماقها الاشباح المخيفة
لتميتني . هذا هو السر الخفي الذي اعلنته البرية الجميلة
لنفسي عند ما كنت اجلس جائعاً باكياً متأوهاً في ظل
الاشجار . ففي يوم وقد سكرت نفسي من هذه الحمرة
الساوية تشجعت ووقفت بين الرهبان اذ كانوا جالسين
في حديقة الدير مثلما تربض البهائم المتخومة وأخذت ابين
لهم افكاري واتلوعلي مسامعهم ايات انكتاب التي تبين
ضلالهم وكفرهم . قلت لهم (لماذا نصرف الايام في
هذه الخلوة متمتعين بخيرات الفقراء والمساكين مستطيبين
الخبز المعجون بعرق جبينهم ودموع اجفانهم متلذذين
بغلة الارض المسلوبة منهم - لماذا نعيش في ظلال
التواني والكسل مبتعدين عن الشعب المحتاج الى المعرفة
حارمين البلاد قوى نفوسنا وعزم سواعدنا ان يسوع

الناصري قد بعثكم كالخراف بين الذئاب فاي تعاليم جعلتكم
 تهيرون كالذئاب بين الخراف . لماذا تتعدون عن البشر
 وقد خلقكم الله بشراً . اذا كنتم افضل من الناس السائرين
 في موكب الحياة عليكم ان تذهبوا اليهم وتعلموهم . وان
 كانوا افضل منكم امتزجوا بهم وتعلموا . . كيف تنذرون
 الفقر وتعيشون كالامراء وتنذرون الطاعة وتمردون على
 الانجيل . وتنذرون العفة وقلوبكم مفعمة بالشهوات . . .
 انتم تنظاهرون بقتل اجسادكم ولكنكم لا تقتلون غير
 نفوسكم . وتنظاهرون بالترفع عن العالميات وانتم اكثر
 الناس طمعاً وتنظاهرون بالتنسك والنقشف وانتم كالبهائم
 المشغولة عن المعرفة بطيب المرعى . تعالوا نعيد اراضي
 الدير الوسيعة الى سكان هذه القرى المحتاجين ونرجع الى
 جيوبهم الاموال التي اخذناها منهم . تعالوا نتفرق الى

كل ناحية مثلما تفرق اسراب الطيور فنخدم الشعب
الضعيف الذي جعلنا اقوياء ونصلح البلاد التي نعيش
بخيراتها ونعلم هذه الامة التعيسة ان تبسم لنور الشمس
وتفرح بمواهب السماء ومجد الحياة والحرية . لان المتأب
التي نجدها بين الناس هي اجل واجمل من الراحة التي
نستلم اليها في هذا المكان . والرأفة التي نلامس بها قلب
القريب هي اسمى من الفضيلة المختبئة في قراني الدير .
وكلمة التعزية التي نقولها على مسامع الضعيف والمجرم
والساقطة هي اشرف من الصلاة الطويلة التي نرددتها في
(الهيكل)

وسكت خليل دقيقة مسترجعاً انفاسه ثم رفع عينيه
نحو راحيل ومريم وقال بصوت هادئ .
» كنت اتكلم بهذه الاشياء وما يشاهدها امام الرهبان

وهم سامعون ودلائل الاستغراب بادية على وجوههم
 كأنهم لم يصدقوا بان فتى مثلي يقف بينهم ويتكلم
 متجاسراً بمثل هذا الكلام حتى اذا ما انتهيت اقترب احدهم
 وقال صارفاً اسنانه (اتجراً ايها الضعيف وتلفظ امامنا
 بمثل هذا الكلام) واقترب آخر وقال ضاحكاً مستهزئاً
 (هل تعلمت هذه الحكمة من البقر والخنازير التي رافقتها
 كل ايام حياتك) وجاء آخر وقال متوعداً (سوف ترى
 ما يحل بك ايها الخبيث الكافر) ثم تفرقوا عني الى كل
 ناحية مثلما يعتمد الاصحاء عن الابرص . وذهب بعضهم
 وشكوتني الى الرئيس فاستدعاني عند غروب الشمس وبعد
 ان وبخني بقساوة على مسمع الرهبان المبتهجين امر بجلدي
 فجلدت بسياط من المرس ثم حكم بسجني شهراً كاملاً
 فاقتادني الرهبان مقهقهين فرحين الى غرفة رطبة مظلمة . .
 انقضى الشهر وانا مطروح في ذلك القبر لا ارى النور
 ولا اشعر بغير ديبب الحشرات ولا ألمس سوى التراب
 ولا اعرف نهاية الليل من بدء النهار ولا اسمع سوى

وطء اقدم احد الرهبان عندما يجبي ويضع بقربي كسرة
من الخبز اليابس العطن وطاساً من الماء الممزوج بالحل
ولما خرجت من ذلك السجن ورأى الرهبان نحول
جسدي واصفرار وجهي توهموا بأن اميال نفسي قد ماتت
في داخلي وانهم بالجوع والعطش والعباد قد قتلوا
العاطفة التي احياها الله في قلبي . . . مرت الايام اثر
الليالي وانا اجهد النفس مفكراً في ساعات انفرادي بما
يجعل اولئك الرهبان ليرون النور ويسمعون نعمة الحياة .
ولكن باطلاً كنت افتكرو وافتكرو لان الغشاء الكثيف
الذي حاكته الاجيال الطويلة على بصائرهم لا تمزقه الايام
القليلة . والطينة التي طلت بها الغباوة آذانهم قد تحجرت
فلا تزيها ملامس الاصابع الناعمة »

وبعد سكينه مملوءة بالتهنيدات رفعت مريم رأسها
والتفت نحو والدتها كأنها تستأذنها بالكلام ثم نظرت
بكاآبة نحو خليل وسألته قائلة « هل عدت وتكلمت ثانية

امام الرهبان فطردوك من الدير في هذه الليلة المخيفة التي تعلم الانسان ان يكون روءوفاً ورفوقاً حتى باعدائه؟ فقال الشاب « في هذا المساء عندما تعاضم هول العاصفة وابتدأت العناصر تتحارب في الفضاء جلست منفرداً عن الرهبان المستدفئين حول النار والمشغولين بسرد الحوادث والحكايات المضحكة وفتحت الانجيل متأملاً بتلك الاقوال التي تستميل النفس وينسيها غضب الطبيعة وقساوة العناصر . ولما راى الرهبان بعيداً عنهم اتخذوا انفرادي سبباً للسخرية بي فجاء بعضهم ووقفوا بقربي واخذوا يتغامزون ويضحكون ويشيرون نحوي مستهزئين فلم احمل بهم بل اطبقت الكتاب وبقيت ناظراً من النافذة فتملوا لذلك غيظاً ونظروا اليّ شزرأ كأن سكوتي قد ايس عواطفهم ثم قال احدهم ساخراً (ماذا تقرأ ايها المصلح العظيم) فلم ارفع عيني نحو المتكلم بل فتحت الانجيل وقرأت منه بصوت عال هذه الآية (وكان يقول للجموع الذين خرجوا ليعتمدوا منه يا اولاد

الاقاعي من اراكم ان تهربوا من الغضب الاتي فاصنعوا
 اثاراً تليق بالتوبة ولا تبدئوا تقولون في نفوسكم ان لنا
 ابراهيم ابا لاني اقول لكم ان الله قادر على ان يقيم من
 هذه الحجارة اولاداً لابراهيم . والان وقد وضعت الفأس
 على اصل الشجرة فكل شجرة لا تعطي ثمرًا جيداً تقطع
 وتلقى في النار . وسأله الجموع قائلين فماذا نفعل فاجاب
 وقال لهم من له ثوبان فليعط من ليس له ومن له طعام
 فليفعل هكذا) عندما قرأت هذه الكلمات التي قالها
 يوحنا المعمدان سكت الرهبان دقيقة كأن يدا خفية قد
 قبضت على ارواحهم ولكنهم عادوا وقهقهوا ضاحكين
 ثم قال احدهم (قد قرأنا هذا الكلام مرات عديدة ولسنا
 نحتاج لرعاة البقر ان يرددوه على مسامعنا) فقلت (لو
 كنتم تقرأون هذه الآيات وتفهمونها لما كان سكان هذه
 القرى المغمورة بالثلوج يتأففون برداً ويتضورون جوعاً
 وانتم ههنا تتمتعون بخيراتهم وتشربون عصير كوثوسهم
 وتأكلون لحوم مواشيهم) . . لم تخرج هذه الالفاظ من

بين شفتي حتى صفعتي احد الرهبان على وجهي كأنني لم
اتكلم بغير الحماقة ثم رفسني اخر برجله واخر انتزع
الكتاب من يدي واخر نادى الرئيس فجاء مسرعاً واذا
اخبروه بما جرى. تعالت قامته وزوى ما بين عينيه وارتجف
غضباً وصرخ باعلى صوته (اقبضوا على هذا الشرير
المتورد وجروه بعيداً عن الدير ودعوا العناصر الغضوبية
تعلمه الطاعة . اخرجوه الى الظلمة الباردة لتفعل به الطبيعة
مشيئة الله ثم اغسلوا اكمكم خوفاً من سموم الكفر المتعلقة
باثوابه وان عاد متضرعاً متظاهراً بالتوبة لا تفتحوا له
الابواب لان الافعى اذا سجدت في القفص لا تنقلب
حمامة والعليقة اذا غرست في الكرم لا تثمر تيناً) ..

حينئذ قبض الرهبان عليّ وجروني بعنف الى خارج
الدير وعادوا ضاحكين وقبل ان يوصدوا الابواب سمعت
احدهم يقول ساخرأ (كنت بالامس ملكاً وكانت رعيتك
البقر والجنائز وقد خلعناك اليوم ايها المصلح لالك اسأت
السياسة فاذهب الان وكن ملكاً على الذئاب الجائعة

والغربان المتطايرة وعلمها كيف يجب ان تعيش في كهوفها
 (واوجرتها)

وتنهذ خليل تنهيدة عميقة ثم حول وجهه ونظر الى
 النار المتأججة في الموقد . وبصوت جارح بجلاوته قال
 « هكذا طردت من الدير وهكذا سلمني الرهبان الى يد
 الموت فسرت والضباب يحجب الطريق عن بصري
 والارياح الشديدة تمزق اثوابي والثلوج المتراكمة تمسك
 بركابي حتى وهنت قواي فسقطت مستغيثاً صارخاً صراخ
 يائس شعر بانه لا يوجد من يسمعه سوى الموت المخيف
 والاوذية المظلمة . ولكن من وراء الثلوج والارياح .
 من وراء الظلمة والغيوم . من وراء الاثير والكواكب ومن
 وراء كل شيء قوة هي كل معرفة وكل رحمة قد سمعت
 صراخي وندائي فلم تشاء ان اموت قبل ان اتعلم ما
 بقي من سرائر الحياة فبعثتكم اليّ لكي تسترجعاني من
 اعماق الهاوية والعدم »

وسكت الشاب والامراتان تنظران اليه بازمطاف
 واعجاب وشفقة كان نفسيهما قد فهمتا خفايا نفسه
 واشتركتا معها بالشعور والمعرفة . وبد هنيهة مدت
 راحيل يدها اسرارادتها ولمست يده بلطف وقالت
 والدموع تنلمع في عينيها . ان من تختاره السماء نصيراً
 للحق لا تفنيه المظالم ولا تميته الثلوج والواصف .

وهمست مريم قائلة . ان المواصف والثلوج تفني
 الزهور ولكنها لا تميت بذورها

فقال خليل وقد انارت التمزية وجهه المصفر مثلما
 تيراشمة الفجر خطوط الشفق . ان كنتما لا تحسباني
 متمرداً وكافراً كما يحسبني الزهبان يكون الاضطهاد الذي
 لقيته في الدير رمزاً للشدة التي تانيها الامة قبل بلوغها
 المعرفة . وتكون هذه الليلة التي كادت تميتني شبيهة
 بالثورات التي نتقدم الحرية والمساواة . لان من قلب

الامرأة الحساس تبتقى سعادة البشر ومن عواطف نفسها
الشريفة تتولد عواطف نفوسهم

قال هذا واتكأ على الوسادة فلم تشأ الامرأتان متابعة
الحديث لانهما عرفنا من نظراته بان الناس المولود من
الراحة والاسندفاء بعد عناء المسير قد راود عينيه .

ولم تمر بضع دقائق حتى انغمض خليل اجفانه ونام
كالطفل المستأن على ذراعي امه . فقامت راحيل بهدوء
وانبعثت مزيم وجلستا على فراشهما تنظران اليه كان في
وجه الذابل جاذباً يستميل روحيهما ويحيط بقلبيهما .

ثم همست الوالدة كأنها تتكلم مع نفسها وقالت . في عينيه
المطبقتين قوة غريبة تنكلم بالسكينة وتنبه اميال النفس .
وقالت الابنة . يداه يا أماه مثل يدي صورة بسوع

الموجودة في الكنيسة .

فهمست الوالدة (علي وجه الكئيب ظاهرة رقة

الامرأة وقوة الرجل) .

وحملت اجنحة الكرى روجي الامرأتين الى عالم
 الاحلام وخدمت النار في الموقد وتحول الجمر الى رماد .
 ثم جفَّ زيت السراج فشح نوره ببطءٍ ثم انطفأ . وظلت
 العاصفة الغضوبية تضج خارجاً والجواقم ينثر رقع الثلوج
 والارياح العنيفة تقذفها يميناً وشمالاً .

- ٤ -

مضى اسبوعان على تلك الليلة والفضاء المتلبد
 بالغيوم يسكن حيناً ثم يشور متهيجاً غامراً الاودية
 بالضباب مكفناً الطلول بالثلوج . وقد هم خليل ثلاث
 مرات ان يتابع مسيره نحو الساحل فكانت راحيل تصده
 بلطف وانعطاف قائلة

لا تسلم حياتك ثانية الى العناصر العمياء بل ابق
 ههنا يا اخي فالخبز الذي يشبع اثنين يكفي ثلاثة والنار في
 هذا الموقد تظل منقذة بعد ذهابك مثلما كانت قبله . نحن
 فقراء يا اخي ولكننا نحيا امام وجه الشمس مثل جميع
 الناس لان الله يعطينا خبزنا كفاف يومنا

اما مريم فكانت ترجوه بنظراتها اللطيفة وتستعطفه
 بتنهدياتها الهادئة لكي يمتنع عن الذهاب لانها منذ دخوله
 بين حي وميت ذلك البيت الحقير شعرت بوجود قوة
 علوية في نفسه تبعث الحياة والشعاع الى قلبها وتنبه
 عواطف جديدة مستحبة في قدس اقداس روحها - لانها
 شعرت لأول مرة في حياتها بتلك الحاسة الغريبة التي
 تجعل قلب الصبية النقي مثل وردة بيضاء تشرب قطرات
 الندى وتسكب دقائق العطر

لا يوجد في داخل الانسان عاطفة انقى واعذب من

تلك العاطفة الخفية التي تستفيق علي حين غفلة في قلب
 الصبية وتملاء خلايا صدرها بالانغام السحرية وتجعل
 ايامها شبيهة باحلام الشعراء ولياليها مثل غيبة الانبياء .
 ولا يوجد بين اسرار الطبيعة سراقوى واجمل من ذلك
 الميل الذي يحول سكينه نفس العذراء الى حراك مستمر
 يميت بعزمه ذكرى الايام الغابرة ويحيي بجلاوته الامال
 بالايام الاتية

والصبية اللبنانية تمتاز عن صبايا الامم بقوة عواطفها
 ورقة احساسها لان التربية البسيطة التي تحرم عاقلتها
 من النمو وتوقف مداركها عن الارتقاء تحول نفسها الى
 استفسار اميال نفسها وتشغل قلبها باسئطلاع خفايا
 قلبها . الصبية اللبنانية مثل ينبوع يخرج من قلب الارض
 بين المنخفضات فلا يجد ممرًا ليسير به نهراً نحو البحر .
 فينقلب بحيرة هادئة تنعكس علي وجهها اشعة القمر

والنجوم .

وشعر خليل بتموجات روح مريم حول روحه
 وعرف بان الشعلة المقدسة التي احاطت بقلبه قد لامست
 قلبها ففرح لاول وهلة فرح طفل ضائع وجد امه ولكنه
 عاد فلام نفسه علي تسرعها وانشغافها ظناً منه بان هذا
 التفاهم الروحي سبب محمل كالضباب عند ما تفصله الايام
 عن تلك القرية . فكان يناجي نفسه قائلاً (ما هذه
 الاسرار الخفية التي تتلاعب بنا ونحن غافلون = وما هذه
 النواميس التي تسيرنا تارة على سبيل وعرة ففسير منقادين
 وتوقفنا طوراً امام وجه الشمس فنقف فرحين وتبلغنا
 مرة قمة الجبل فنبتسم متهللين وتهبط بنا اُخرى الى
 اعماق الوادي فنصرخ متوجعين . ما هذه الحياة التي
 تعانقنا يوماً كالحيب ويوماً تضعنا كالعدو ؟ الم اكن
 بالامس مكروهاً مضطهداً بين رهبان الدير . او لم اقبل

العذاب والسخرية من اجل هذه الحقيقة التي ايقظتها
 السماء في صدري . اولم اقل للرهبان بان السعادة هي
 مشيئة الله في الانسان ؟ اذاً ما هذا الخوف ولماذا اغمض
 عيني واحول وجهي عن النور المنبعث من عيني هذه
 الصبية ؟ انا مطرود وهي فقيرة ولكن ابالخبز وحده يحيا
 الانسان . اوليست الحياة ديناً ووفاءً . اولسنا بين
 العوز واليسر كالاشجار بين الشتاء والصيف ؟ ولكن
 ماذا تقول راحيل اذا علمت بان روح الفتى المطرود من
 الدير وروح ابنتها الوحيدة قد تفاهمتا في السكينة
 واقتربتا من دائرة النور الاعلى ؟ وماذا تفعل يا ترى اذا
 ما درت بان الشاب الذي خلصته من مخالب الموت
 يريد ان يكون رفيقاً لابنتها ؟ ومذا يقول سكان هذه
 القرية البسطاء اذا ما علموا بان فتى ربي في الدير وخرج
 منه مطروداً نجاءً قريتهم لكي يعيش بقرب صبية جميلة ؟

أفلا يتلقون آذانهم اذا ما قلت لهم بان الذي يغادر الدير
 ليعيش بينهم يكون كالطائر الذي يخرج من ظلة القنص
 الى النور والحرية ؟ وماذا يقول الشيخ عباس العائش بين
 هؤلاء الملاحين المساكين كالامير بين العبيد اذا ما سمع
 حكايتي ؟ وماذا يفعل كاهن القرية اذا ما رددوا على
 مسامعة تلك الاقوال التي سببت طردي من الدير ؟ »

كان خليل يناجي نفسه بهذه الافكار وهو جالس
 بقرب الموقد يتأمل باللسنة النار الشبيهة بعواطفه اما مريم
 فكانت تختلس النظرات اليه وتقرأ احلامه في ملامح
 وجهه وتسمع صدى افكاره خارجاً من صدرها وتشعر
 بخيالاته هواجسه متايمة حول قلبها

ففي عشية يوم وقد وقف خليل بقرب الكوة المطلة
 نحو الوادي حيث الاشجار والصخور المتحفة بالثلوج
 التحاف الاموات بالاكفان جاءت مريم ووقفت بجانبه
 ونظرت من الكوة الى الفضاء فالتفت نحوها واذا التقت

عيناه بعينيهما تنهد تنهيدة معرقة ثم حول وجهه وانغض
اجفانه كأن نفسه قد تركته وسبحت ساعة في اعماق
اللانهاية باحثة عن كلمة تقولها

وبعد هنيهة تشجعت مريم وسألته قائلة : « الى اي
مكان تذهب عندما تذوب هذه الثلوج وتفتح الطرقات »
فأجابها وقد فتح عينية الكبيرتين وأحدق بالافق
البعيد « سوف اتبع الطريق الى حيث لا اعلم »
فارتعشت روح مريم ثم قالت متنهدة : « لماذا لا
تسكن في هذه القرية وتبقى قريباً منا . ليست الحياة
ههنا افضل من الغربة البعيدة »

فأجابها وقد اضطربت احشائها لرقة كلماتها ونغمة
صوتها « ان سكان هذه القرية لا يقبلون المطرود من
الدير جاراً لهم ولا يسمعون له ان يتنفس الهواء الذي
يحييهم لانهم يحسبون عدو الرهبان كافراً بالله وقديسيه »
فتأوتت مريم ولبثت ساكنة لان الحقيقة الجارحة
قد اخرستها . حينئذ اسند خليل رأسه بيده وقال « ان

سكان هذه القرى يا مريم قد تعلموا من الرهبان والكهان
 بغض كل من يفكر لذاته فصاروا يقلدونهم ويتعدون
 مثلهم عن جميع الذين يريدون ان يصرفوا حياتهم فاحصين
 لا تابعين . فاذا بقيت في هذه القرية وقلت لسكانها
 تعالوا يا اخوتي نمجد ونملي حسب مشيئة نفوسنا لا مثلما
 يريد الرهبان والقسس لان الله لا يريد ان يكون معبوداً
 من الجاهل الذي يقلد غيره يقولون هذا ملحد يعاند
 السلطة التي وضعها الله في ايدي كهانه . وان قلت لهم
 اصغوا يا اخوتي واسمعوا صوت قلوبكم واعملوا ارادة الروح
 الكائنة في اعماقكم يقولون هذا شرير يريدنا ان نكفر
 بالوسائط التي اقامها الله بين السماء والارض «

ونظر خليل اذ ذاك الى عيني مريم وبصوت يحاكي
 رنين الاوتار الفضية قال : (ولكن في هذه القرية يا مريم
 قوة سحرية تمتلكني وتتشبث بنفسي — قوة علوية قد
 انستني اضطهاد الرهبان وحببت الي قساوتهم . في هذه
 القرية لقيت الموت وجهاً لوجه وفيها عاقت روحي روح

الله . في هذه القرية زهرة نابئة بين الاشواك يستميل
جمالها تقسي ويملاً عطرها كبدي فهل امرك هذه الزهرة
واذهب مبشراً بالمبادئ التي ابعدتني عن الدير ام ابقى
بجانبا واحفر لافكاري واحلامي قبرا بين الاشواك
المحيطة بها . ماذا افعل يا مريم ؟

سمعت مريم هذه الكلمات فاهتزت قامتها مثلما ترتعش
الزنبقة امام نسيم السحر وفاضت اشعة قلبها من مقلتيها
فقالته والحياء يغالب لسانها : (كلاتنا بين يدي قوة
خفية عادلة رحومة فلندعها تفعل ما تشاء بنا)

منذ تلك الدقيقة تمازجت عواطف خليل بعواطف مريم
وصارت نفساهما شعلة واحدة متقدة ينبعث منها النور
ويتضوع حولها البخور



منذ ابتداء الدهر الى ايامنا هذه والفيئة المتمسكة
بالشرف الموروث تتحالف وتمفق مع الكهان وروءساء

الاديان على الشعب . هي علة مزمنة قابضة باظافرها على
عنق الجامعة البشرية ولن تنزول الا بزوال الغباوة من هذا
العالم عندما يصبر عقل كل رجل ملكاً ويصبح قلب كل
امرأة كاهناً

ابن الشرف الموروث يبني قصره من اجساد الفقراء
الضعفاء . والكاهن يقيم الهيكل على قبور المومنين
المستسلمين . . الامير يقبض على ذراعي الفلاح المسكين
والكاهن يمد يده الى جيبه . . الحاكم ينظر الى ابنا
الحقول عابساً والمطران يلتفت نحوهم مبتسماً . وبين عبوسة
النمر وابتسامه الذئب يفنى القطيع . . الحاكم يدعي تمثيل الشريعة
والكاهن يدعي تمثيل الدين وبين الاثنين تفنى الاجساد
وتضمحل الارواح

وفي لبنان - ذلك الجبل الغني بنور الشمس الفقير
الى نور المعرفة - قد اتحد الشريف والكاهن على الفقير
الضعيف الذي يحرث الارض ويستغلها كما يحمي جسده
من سيف الاول ولعنة الثاني

ابن الشرف الموروث يقف في لبنان بجانب قصره
ويصرخ بالبنانيين قائلاً « قد اقامني السلطان ولياً على
اجسادكم » والكاهن ينتصب امام المذبح هاتفاً « قد اقامني
الله وصياً على ارواحكم » اما اللبنانيون فيظلون صامتين
لان القلوب المغلقة بالتراب لا تنكسر . لان الاموات
لا يمكن

فالشيخ عباس النهي كان في تلك القرية ولياً وحاكماً
واميراً كان محباً لرهبان الدير محافظاً على تعاليمهم
وتقاليدهم لانهم كانوا يشاركونه بقتل المعرفة واحياء الطاعة
في نفوس حارثي حقوله وكرومه

ففي ذلك المساء — بينما كان خايل ومريم يقتربان من
عرش الحب وراحيل تنظر اليهما بانعطاف مستطلعة خفايا
نفسيهما — ذهب الخوري الياس كاهن القرية واخبر
الشيخ عباس بان الرهبان الاتقياء قد طردوا من الدير
فتى متمرداً اشريراً وان هذا الملحد الكافر قد جاء القرية
منذ اسبوعين وهو الان ساكن في بيت راحيل ارملة

سمعان الرامي

ولم يكتب الخوري الياس بابلغ الشيخ هذا الخبر بل زاد قائلاً « ان الشيطان الذي يُطرد من الدير لا ينقلب ملاكاً في هذه القرية والتينة التي يقطعها رب الحقل ويلقيها في النار لا تعطي اثماراً جيدة وهي في الموقد . فان كنا نريد ان تبقى هذه القرية سالمة من جرائم العمل الخبيثة علينا ان نطرد هذا الشاب من منازلنا وحقولنا مثلما طرده الرهبان من الدير »

فسأله الشيخ عباس قائلاً « وكيف عرفت بأن هذا الشاب سيكون في هذه القرية كالعلة الخبيثة . أليس افضل ان نقيه عندنا ونجعله ناطوراً للكروم او راعياً للبقر نحن بحاجة ماسة الى العمال فاذا ما جلبت لنا الطريق فتى قوي الساعدين نسترضيه ولا نطرده »

فابتسم الكاهن تلك الابتسامة الشبيهة بلامس الافرغ ثم قال ممشطاً لحيته الكثيفة باصابعه « لو كان هذا الشاب صالحاً للعمل لما طرده الرهبان لان اراضي الدير وسبعة

وقطعانه لا تحصى . وقد اخبرني مكاري الدير الذي بات
 عندي ليلة امس بان هذا الشاب كان يردد على مسامع
 الرهبان آيات الكفر مقرونة بالفاظ ثورية تدل على طيشه
 وخبائثه فقد تجاسر مرات عديدة وخطب فيهم قائلاً
 (ارجعوا حقول الدير وكرومه وامواله الى سكان هذه
 القرى الفقراء وتفرقوا الى كل ناحية وذاك خير من الصلاة
 والعبادة) واخبرني المكاري ايضاً بان قساوة التوبيخ
 واوجاع الجلد بالسياط وظامة السجن لم تعد لهذا الكافر
 صوابه بل كانت تغذي الشيطان القابض على نفسه مثلاً
 تكثر اوساخ المزابل عدد الحشرات »

فانتصب الشيخ عباس على اقدامه ونظير نمر يتراجع
 قليلاً الى الوراء قبيل الوثوب بقي ساكناً هنيئة يصر اسنانه
 وينتفض غيظاً ثم مشى نحو باب القاعة ونادى خدامه
 بصوت عال فجاء ثلاثة منهم ووقفوا امامه مستطلعين امره
 فخطبهم قائلاً " في بيت راحيل الارملة شاب مجرم
 يرتدي اثواب راهب فأذهبوا الان وقودوه اليّ مكتوفاً

وان قاومتكم تلك الامراة اقبضوا عليها وجروها على الثلج
 بجداول شعرها لان من يساعد الشرير يكون شريراً «
 فأحنى الخدام رؤوسهم وخرجوا مسرعين لينتموا
 مشيئة سيدهم وبقي الشيخ عباس والكاهن يتحدثان عما
 يجب ان يفعله بالشاب المطرود وراحيل الارملة

٦

توارى النهار وقدم الليل ناشراً خيالاته بين تلك
 الاكواخ المكتنفة بالثلوج وظهرت النجوم في ذلك الفضاء
 المظلم البارد ظهور الامل بالخلود من وراء اوجاع النزاع
 والموت . فاوصد الفلاحون الابواب والنوافذ واشعلوا
 السرج وجلسوا يصطلون بقرب الموقد غير حافلين باشباح
 الليل السائرة حول بيوتهم

في تلك الساعة بينما كانت راحيل وابنتها مريم وخليل
 جالسين حول مائدة خشبية يتناولون العشاء طرقت الباب
 ودخل عليهم خدام الشيخ عباس فالتفتت راحيل مذعورة

وشهقت مريم مرتاعةً أما خليلٌ فلبث هادئاً كأن نفسه
الكبيرة قد تنبأت وعامت بمجيء هو لاء الرجال قبيل مجيئهم
فاقترب احد الخدام وألقى يده بعنف على كتف خليل
وقال بصوت اجش ،، ألسنت انت الشاب المطرود من
الدير ؟ ،، فاجابه خليل ببطىء ،، انا هو فماذا تريدون ،،
فقال الرجل ،، نريد ان نسير بك مكتوفاً الى منزل
الشيخ عباس وان ابدت ممانعة نجرىك على الثاج كالحروف
المدبوح ،،

فانصبت راحيل وقد اصفر وجهها وتجمعت جبهتها
وقالت بصوت مرتجف ،، اي ذنب اتاه امام الشيخ
عباس ولماذا تريدون جره مكتوفاً ،،

وقالت مريم ونعمة الرجاء والاستعطاف تمازج صوتها
،، هو فرد وانتم ثلاثة فمن الجبانة ان تتحالفوا على اذلاله
وتعذيبه ،،

فصرخ الخادم وقد حمى غضبه ،، أ يوجد في هذه
القرية امرأة تمارض مشيئة الشيخ عباس ،، قال هذا

وانتشل من وسطه حبلاً متيناً وهم ليوثق به كتفي خليل
فوقف الشاب ولم تتغير ملامحه بل ظل رأسه مرفوعاً
كالبرج امام الزوبعة . وسالت على شفقيه ابتسامة محزنة
ثم قال ، انا اشفق عليكم ايها الرجال لانكم آلة قوية
عمياء في يد مبصر ضعيف يظلمكم ويسحق الضعفاء بسواعدكم
انتم عميد الغباوة والغباوة هي اشد اسوداداً من بشرة
الزنوج واكثر استسلاماً للحنيف والقساوة . كنت بالامس
مثلكم ايها الرجال وغداً تصيرون مثلي اما الان فيمننا
هوتة عميقة مظلمة تمتص ندائي وتحجب حقيقتي عنكم فلا
تسمعون ولا تبصرون هانذا فشدوا ساعدي وافعلوا بي ما شئتم»
سمع الرجال هذا الكلام فجمدت عيونهم واقشعرت
ابدانهم وبهتوا بالشاب هنيهة كأن عذوبة صوته قد انتزعت
الحركة من اجسادهم وايقظت الاميال العلوية الهاجعة في
اعماق قلوبهم ولكنهم عادوا فأنتمبها كأن صدى صوت
الشيخ عباس قد تملل في مسامعهم وذكرهم بالمهمة التي
بعثهم من اجلها . فتقدموا واوثقوا ساعدي الشاب وخرجوا

به ساكتين شاعرين بشي من الألم بين تلافيف ضمايرهم
فاتبعتهم راحيل ومريم ونظير بنات اورشليم عندما اتبعن
يسوع الى الجلجلة سارتا خلف خليل نحو منزل الشيخ عباس

٧

ان الاخبار كبيرة كانت ام تافهة تنتقل بسرعة الفكر
بين الفلاحين في القرى الصغيرة . لان بعدهم عن مشاغل
الاجتماع المتتابعة يجعلهم ان ينصرفوا بكائيتهم الى استقصاء
ما يحدث في محيطهم المحدود . وفي ايام الشتاء عندما
تكون الحقول والبساتين راقدة تحت لطف الثلوج وتنزوي
الحياة خائفة مستدفئة حول المواقد يصير القرويون اشد
رغبة واكثر ميلا الى استطلاع الاخبار لكي يملأوا
بتأثيراتها ايامهم الفارغة وينصرفوا باستفسارها ليايهم الباردة
وهكذا لم يقبض خدام الشيخ عباس على خليل في
تلك الليلة حتى انتشر الخبر كالعذوى بين سكان تلك
القرية وأثارت محبة الاستفهام نفوسهم فتركوا اكواخهم

وتراكضوا مسرعين من كل ناحية كالجنود المتفرقين فلم
يبلغ الشاب المكتوف منزل الشيخ حتى اجتمع في تلك
الدار الوسيعة الرجال والنساء والصبيان وكلهم يمدون اعناقهم
بتشوق ليحظوا بنظرة من الكافر المطرود من الدير
ومن راحيل الارملة وابنتها مريم اللتين شاركتا الارواح
الشريرة على بث السموم والعلل الجهنمية في فضاء قريتهم
جاس الشيخ عباس على مقعد عال وترجم بجانبه
الخوري الياس ووقف الفلاحون والخدام مترقبين محدقين
بالفتى المكتوف الواقف بينهم برأس مرفوع وقوف الطود
بين المنخفضات . اما راحيل ومريم فكانتا واقفتين خلفه
والخرف يراءد قلبيهما ونظرات القوم القاسية تعذب نفسيهما
ولكن ماذا يفعل الخوف في عواطف امرأة رأت الحق
فاتبعته وماذا تفعل النظرات القاسية في فؤاد صليبة
سمعت نداء الحب فاستيقظت

ونظر الشيخ عباس اذ ذلك نحو الشاب وبصوت
يشابه ضجيج الامواج سأل قائلا : ما اسمك ايها الرجل

فاجابه : اسمي خليل . فقال الشيخ : من
 هم اهلك وذووك واين مسقط رأسك
 فالتفت خليل نحو الفلاحين الناظرين اليه بكره
 واشتمزاز وقال : الفقراء والمساكين المظلومون هم اهلي
 وعشيرتي . وهذه البلاد الوسيعة هي مسقط رأسي
 فابتسم الشيخ عباس مستهزئاً ثم قال : ان الذين
 تنتسب اليهم يطلبون معاقبتك والبلاد التي تدعيها وطناً
 تأتي ان تكون من سكانها

فقال خليل وقد اضطربت احشاؤه : (ان الشعوب
 الجاهنة تقبض على اشرف ابنائها وتسلمهم الى قساوة العمارة
 والظالمين . والبلاد المغمورة بالذل والهوان تضطهد معديها
 ومخلصيها . ولكن أيترك الابن الصالح والدته اذا كانت
 مريضة وينكر الاخ الروءوف اخاه اذا كان تعيساً . ان
 هؤلاء المساكين الذين اسلموني اليك مكتوفاً اليوم هم
 الذين اسلموك رقابهم بالامس . والذين اوقفوني مهاناً
 امامك هم الذين يزرعون حبات قلوبهم في حقولك

ويهرقون دماء أجسادهم على أقدامك . وهذه الارض التي تأتي ان اكون من سكانها هي الارض التي لا تفغر فاها وتبتلع الطغاة والظالمين)

فقيهه الشيخ عباس ضاحكا كانه يريد ان يفرق بضحكه القبيح روح الشاب ويوقفها عن المسير الى ارواح السامعين البسطاء ثم قل : (او لم تكن راعياً لثيران الدير ايها الشاب الوقح فلماذا تركت رعيتك وخرجت مطروداً . هل ظننت ان الشعب يكون اكثر رافة بالمجازيب الملاحدين من الرهبان الاتقياء)

فاجابه خليل : (كنت راعياً ولم اكن جزاراً . كنت اقود العجول الى المروج الخضراء والمراعي الخصبة ولم اسر بها قط الى الطلول الجرداء . كنت اوردها الينابيع العذبة وابعدها عن المستنقعات الفاسدة . كنت اعيدها في المساء الى الحظيرة ولم اتركها في الوادي فريسة للذئاب والضواري الخاطفة . هكذا كنت افعل بالبهائم ولو فعلت انت مثلي بهذا القطيع المهزول الرابض الان حولنا لما كنت

تسكن هذا القصر الرفيع وتتركه يبيد جوعاً في الاكواخ
المظلمة . لو كنت ترحم ابناء الله البائسين مثلما كنت
ارحم عجول الدير لما كنت جالساً الان على هذا المقعد
الحريري وهم واقفون امامك وقوف القضبان العارية
امام ريح الشمال)

فتحرك الشيخ عباس منزعجاً وتلمعت على جبهته قطرة
عرق باردة وتبدل ضحكه بالغضب ولكنه عاد فامتلك
نفسه كيلا يظهر الاهتمام والاكتراث امام رجاله وتابعيه
ثم قال مشيراً بيده (لم نأت بك مكنوفاً ايها الكافر
لنسمع هديانك بل احضرنك لكي نحاكمك كمجرم شرير
فاعلم اذاً بانك واقف الان امام سيد هذه القرية وممثل
ارادة الامير امين الشهابي ايده الله (١) وامام الخوري
الياس ممثل الكنيسة المقدسة التي كفرت بها . فدافع
اذاً عن نفسك مما اتهمت به او فاركم مسترحماً نادماً

(١) الامير امين شهاب هو ابن الامير بشير الكبير وقد حكم
الجبيل بعد موت ابيه

امامنا وامام هذا الجمع الساخر بك فنغفر لك ونجعلك
 راعياً للبقر مثلما كنت في الدير)
 فأجاب الشاب بهدوء : (ان المجرم لا يحاكمه
 المجرمون والكافر الشرير لا يدافع عن نفسه امام الخطاة)
 قال هذه الكلمات والتفت نحو الجمع المزدهم في
 تلك القاعة الوسيعة وبصوت جهوري يشابه رنين الاجراس
 الفضية ناداهم قائلاً « ايها الاخوة ان الرجل الذي اقامه
 خضوعكم واستسلامكم سيداً على حقولكم قد احضرني
 مكتوباً ليحاكمني امامكم في هذا القصر المبني فوق بقايا
 اباؤكم وجدودكم . والرجل الذي جعله ايمانكم كاهناً في
 كنيستكم قد جاء ليديني ويساعد على تعذيبي واذلالي
 اما انتم فقد تراكضتم مسرعين من كل ناحية لكي تنظروني
 مثلاً وتسمعوني مستغيثاً مسترحماً . قد تركتم جوانب
 المواعد الدافئة لتشهدوا ابنكم واخلاكم مكتوباً مهاناً . قد
 اسرعتم لتروا الفريسة المتوجعة بين مخالف الكواسر .
 قد جئتم لتنظروا المجرم الكافر واقفاً امام القضاة . انا هو

المجرم . انا هو الكافر الذي طرد من الدير فحملته العاصفة
 الى قريتكم . انا هو ذلك الشرير فاسمعوا احتجاجي
 ولا تكونوا مشفقين بل كونوا عادلين لان الشفقة تجوز
 على المجرمين الضعفاء اما العدل فهو كل ما يطلبه الابرياء
 قد اخترتكم قضاتي لان ارادة الشعب هي مشيئة الله
 فأيقظوا قلوبكم واسمعوني جيداً ثم احكموا علي بما توحيه
 ضمائرکم . قد قيل لكم بانني رجل كافر شرير ولكنكم لم
 تعرفوا ما هي جريمتي . وقد رأيتوني مكتوفاً كالص
 القتال ولم تسمعوا بعد بذنوبي لان حقيفة الجرائم والذنوب
 في هذه البلاد تظل مسترة وراء الضباب اما العقاب
 فيظهر للناس ظهور اسياف البرق في ظلمة الليل . جريمتي
 ايها الرجال هي ادراكي تعاستكم وشعوري بثقل قيودكم
 وآثامي ايها النساء هي شفقتي عليكم وعلى اطفالكم
 الذين يمتصون الحياة من صدوركن ممزوجة بلهات الموت
 انا واحد منكم ايها الجمع وقد عاش آباي وجدودي بين
 هذه الاودية التي تستفرغ قوامكم وماتوا تحت هذ النير

الذي يلوى اعناقكم . انا اوء من بالله الذي يسمع نداء
نفوسكم المتوجعة ويرى صدوركم المقروعة واوء من بالكتاب
الذي يجعلني ويجعلكم اخوة متساوين امام وجه الشمس
واوء من بالتعاليم التي تحررني وتحرركم من عبودية البشر
وتوقفنا جميعاً بغير قيود على الارض موطىء اقدام الله
كنت في الدير راعياً للبقر ولكن انفرادي مع البهائم الخرساء
في البرية الساكنة لم يعمني عن المأساة الالهية التي تمثلونها
كرهاً في الحقول ولم يصم اذني عن صراخ اليأس المتصاعد
من قراني الاكواخ . قد نظرت فزأيتني في الدير ورأيتكم
في الحقول كقطيع من النعاج سائر وراء ذئب خاطف الى
وكره فوقفت في منتصف الطريق وصرخت مستغيثاً فهجم
الذئب ونهشني بانيا به المحددة ثم احتال عليّ وابعثني
كيلا يثير صراخي روح القطيع فيتمرد ويتفرق مذعوراً الى
كل ناحية ويتركه منفرداً جائعاً في ظلام الليل . . قد
احتملت السجن والجوع والعطش من اجل الحقيقة الجارحة
التي رأيتها مكتوبة بالدماء على وجوهكم وقاسيت العذاب

والجلد والسخرية لانني جعلت لسكينة تنهيداتكم صوتاً
صارخاً متموجاً في خلايا الدير . ولكنني لم اخف قط
ولم يضعف قلبي لان صراخكم الاليم كان يتبع نفسي
ويجدد قواي ويحبب اليّ الاضطهاد والاحتقار والموت . .
انتم تسألون نفوسكم الان قائلين (اي متى صرخنا
متظاهرين واي فرد منا يتجاسر ان يفتح شفتميه) وانا اقول
لكم بان نفوسكم تصرخ متظامة في كل يوم وقلوبكم
تستغيث متوجعة في كل ليلة ولكنكم لا تسمعون نفوسكم
وقلوبكم لان المنازع لا يسمع حشرجة صدره اما الجالسون
بجانب مضجعه فيسمعون والطائر المذبوح يرقص متماملاً
اسر ارادته ولا يعلم اما الناظرون فيعلمون . . في اي
ساعة من النهار لا تتأوه ارواحكم متوجعة . أفي الصباح
عندما تتهركم محبة البقاء وتمزق نقاب الكرى عن اجفانكم
وتقودكم كالعبيد الى الحقول . ام في الظهيرة عندما تتمنون
الجلوس في ظل الاشجار لكي تنقوا سهام الشمس المحرقة
ولا تستطيعون . ام في المساء عندما تعودون جائعين

الى اكوأخكم ولا تجدون سوى الخبز اليابس والماء العكر .
ام في الليل عندما تطرحكم المتاعب على الاسرة الحجرية
فتنامون قلقين ولا يكحل النعاس اجفانكم الا وتهبون
خائفين متوهمين صوت الشيخ يرن في اذانكم . . . وفي
اي فصل من السنة لا تندب قلوبكم متحسرة . افي
الربيع عندما ترثي الطبيعة حلة جديدة فتخرجون لمشاهدتها
باطار بالية ممزقة . ام في الصيف عندما تحصدون الزرع
وتجمعون الاثمار على البيادر وشملاًون اهراء سيدكم الظلوم
بالغلة ولا تحصلون لقاء اتعابكم على غير التبن والزوءان
ام في الخريف عندما تجنون الاثمار وتعصرون العنب ولا
يكون نصيبكم منها سوى الخل والبلوط . ام في الشتاء
عندما يضطهدكم الفضاة ويطردكم البرد والزمهرير الى الاكواخ
المتحفة بالثلوج فتجلسون بجانب المواقد متأففين خائفين
غضب الزوابع والعواصف . هذه هي حياتكم ايها الفقراء .
هذا هو الليل المخيم على ارواحكم ايها التمساء . هذه
هي اشباح ذلكم وشقائكم ايها المساكين . هذا هو الصراخ

الاليم المستمر الذي سمعته خارجاً من اعماق صدوركم
 فاستيقظت وتمردت على الرهبان وكفرت بمعيشتهم ووقفت
 منفرداً متظالماً باسمكم واسم العدالة المتوجعة باوجاعكم
 فحسبوني كافراً! شريراً وطرردوني من الدير فحُتت لكي
 اشاطركم التعاسة واعيش بقربكم وامزج دمعي بدموعكم
 فاسلمتموني مكتوفاً الى عدوكم القوي الذي يغتصب خيراتكم
 ويحبها غنياً باموالكم ويملاً جوفه الوسيع من اثمار اتعابكم
 . . . الا يوجد بينكم شيوخ يعلمون بان الارض التي
 تخرثونها وتحرثون غلتها هي لكم وقد اغتصبها والد الشيخ
 عباس من ابائكم عندما كانت الشريعة مكتوبة على حد
 السيف؟ اما سمعتم بان الرهبان قد احتملوا على جدودكم
 وامتلكوا مزارعهم وترومهم عندما كانت آيات الدين
 مخطوطة على شفتي الكاهن؟ الا تعلمون بان ممثلي الدين
 وابناء الشرف الموروث يتعاونون على اخضاعكم واذلالكم
 واستقطار دماء قلوبكم؟ اي رجل منكم لم يلو عنقه
 كاهن الكنيسة امام سيد الحقول . واي امرأة بينكم لم

يزجرها سيد الحقول ويستحثها لكي تتبع مشيئة كاهن
الكنيسة ؟ . .

قد سمعتم بان الله قد قال للانسان الاول (بعرق
جبينك تأكل خبزك) فلماذا ياكل الشيخ عباس خبزه
مجبولاً بعرق جبينكم ويشرب خمرة ممزوجاً بدموعكم ؟
هل ميز الله هذا الرجل وجعله سيداً اذ كان في رحم
امه ام غضب عليكم لذنوب مجهولة وبعثكم عبيداً الى
هذه الحياه لكي تجمعوا غلة الحقول ولا تأكلون غير اشواك
الاوذية . وتقيموا القصور الفخيمة ولا تسكنون غير
الاكواخ المتداعية ؟ . . قد سمعتم بان يسوع الناصري
قال لتلامذته (مجاناً اخذتم ومجاناً اعطوا . . لا تقتنوا
فضة ولا ذهباً ولا نحاساً في مناطقكم) اذاً اي تعاليم
اباحت للرهبان والكهان بيع صلواتهم وتعازيمهم بالفضة
والذهب ؟ . . انتم تعملون في سكينه الليالي قائلين (اعطنا
يارب خبزنا كفاف يومنا) والرب قد وهبكم هذه الارض
لتعطيكم الخبز والكفاف فهل وهب روساء الاديرة السلطنة

لا تتزاع هذا الخبز من بين ايديكم ؟ انتم تلعنون يهوذا
لانه باع سيده بالفضة فاي شيء يجعلكم ان تباركوا الذين
بيعونه في كل يوم من حياتهم ؟ ان يهوذا التعيس قد ندم
على خطيئته فشق نفسه اما هؤلاء فيسيرون امامكم
برؤوس مرفوعة واذيال طويلة ناعمة وقلائد ذهبية وخواتم
ثمينة . انتم تعلمون ابنائكم محبة الناصري فكيف تعلمونهم
الخضوع امام مبغضيه ومخاليفي تعاليمه وشريعته ؟ قد
عرفتم بان رسل المسيح قد ماتوا قتلاً ورجماً لكي يحيوا
فيكم الروح المقدسة فهل تعرفون بان الرهبان والكهان
يقتلون ارواحكم لكي يحيوا متمتعين بخيراتكم متلذذين
بمحرقة قيودكم ؟ . ماذا يفرم ايها المساكين في وجود مفعم
بالذل والهوان وبتبقيكم باكعين امام صنم مخيف اقامه
الكذب والرياء على قبور ابائكم . واي كنز ثمين تحافظون
عليه بخضوعكم لتبقوه ارثاً لابنائكم ؟ .
نفوسكم في قبضة الكاهن واجسادكم بين مخالب
الحاكم وقلوبكم في ظلمة اليأس والاحزان فاي شيء في

هذه الحياة يمكنكم ان تشيروا اليه قائلين (هذا لنا) .
 اتعرفون ايها المستسلمون الضعفاء من هو الكاهن الذي تهابونه
 وتقيمونه وصياً على اقدس اسرار نفوسكم ؟ اسمعوني ما
 تشعرون انتم به وتخافون اظهاره . هو خائن يعطيه
 المسيحيون كتاباً مقدساً فيجعله شبكة يصطاد بها امواهم
 ومرائي يقلده المؤمنون صليلاً جميلاً فيمتشقه سيفاً سنيماً
 ويرفعه فوق رؤوسهم وظالم يسلمه الضعفاء اعناقهم فيربطها
 بالمقاود ويوثقها باللجم ويقبض عليها بيد من حديد ولا
 يتركها حتى تنسحق كالفخار وتتبدد كالمعادن . هو ذئب
 كامر يدخل الحظيرة فيظنه الراعي خروفاً وينام مطمئناً
 وعند مجيء الظلام يشب على النعاج ويخنقها نعمة اثر
 نعمة . هو نهم يحترم موائد الطعام اكثر من مذابح الهيكل
 وطامع يتبع الدينار الى مغاير الجن ويمتص دماء العباد
 مثلما تمتص رمال الصحراء قطرات المطر . وبخيل يحرص
 على انفاسه ويذخر ما لا يحتاجه . هو محتمل يدخل من
 شقوق الجدران ولا يخرج الا بسقوط البيت . واص صخري

القلب ينتزع الدرهم من الارملة والفلس من اليتيم . هو مخلوق عجيب له منقاد النسر ومقابض النمر وانياب الضبع وملامس الافعى . خذوا كتابه ومزقوا ثوبه وانتفوا لحيته وافعلوا به ما شئتم ثم عودوا وضعوا الدينار في كفه فيغفر لكم ويبتسم بحبة . اصفعوا خده وابصقوا بوجهه ودوسوا عنقه ثم اجلسوه على موائدكم فيتناسى ويتهلل ويحل حزامه لينمو جوفه بما كلكم ومشاربكم . . جذفوا على اسم ربه واقذفوا بعقائده واسخروا بايمانه ثم ابعثوا اليه بجرة من الحجر او بسلة من الفاكهة فيسأ محكم ويبرركم امام الله والناس يرى الامراة فيحول وجهه قائلاً باعلى صوته (ابتعدي عني يا ابنة بابل) ثم يهمس بسره قائلاً (الزبيجة افضل من التحرق) . . يرى القتيان والصبايا سائرين في موكب الحب فيرفع عينيه نحو السماء ويهتف قائلاً (باطلة الاباطيل وكل شيء تحت الشمس باطل) ثم يخطي ويتنهد قائلاً (لتفن الشرائع وتضمحل التقاليد التي ابعدتني عن غبطة الحياة واحرمتني لذات العمر) . . يقول للناس مستشهداً

(لا تدينوا لثلاثادناوا) ولكنه يدين بقساوة جميع
الذين يشخرون بمكارهه ويبعث بارواحهم الى الجحيم قبل
ان يبعدهم الموت عن هذه الحياة . . . يحدثكم رافعاً عينيه
بين الاونة والاخرى نحو العلاء اما فكرته فتظل مناسبة
كالافعى حول جيوبكم . . . يناديكم بقوله لكم يا اولادي
ويا ابنائي وهو لا يشعر بالعاطفة الابوية ولا تبتسم شفاته
لرضيع ولا يحمل طفلاً على منكبيه يقول لكم هازناً راسه
بتخشم (لتترفعن عن العالميات لان اعمارنا تضمحل
كالضباب وايماننا تزول كالفي) واذا نظرتكم جيداً رأيتموه
متمسكاً باذيال الحياة مشبهاً باهداب العمر متأسفاً على
ذهاب الامل . خائفاً من سرعة اليوم . مترقباً مجيء
الغد . . . يطاب منكم الاحسان وهو اوفر منكم مالا فان
اجبتموه يبارككم علناً وان منعتموه يلعنكم سراً . . . في
الهيكل يوصيكم بالفقراء والمحتاجين وحول منزله يصرخ
الجائعون وامام عينيه تمتد ايدي البائسين فلا ينظر ولا يسمع
بيعه صلواته بيعاً ومن لا يشتري يكون كافراً بالله وانبيائه

من الجنة والنعيم . . هذا هو المخلوق الذي يخيفكم ايها
المسيحيون . هذا هو الراهب الذي يمتص دماءكم ايها
الفقراء . هذا هو الكاهن الذي يرسم اشارة الصليب
بيمينه ويقبض على قلوبكم بشماله . هذا هو الاسقف
الذي تقيمونه خادماً فينقلب سيداً وتطوبونه قديساً فيصير
شيطاناً وترفعونه نائباً فيصبح نيراً ثقيلاً . هذا هو الظل
الذي يتبع ارواحكم منذ بلوغها هذا العالم حتى رجوعها الى
الابدية . هذا هو الرجل الذي جاء في هذه الليلة لكي
يدينتي ويرذلني لان روحي تمردت على اعداء يسوع
الناصرى الذي احبكم ودعاكم اخوة له ثم صلب من
اجلكم»

وتهلل وجه الشاب المكتوف وقد شعر باليقظة الروحية
المتمايلة في صدور سامعيه واتضحمت له تاثيرات كلامه في
وجوه الناظرين اليه فرفع صوته وزاد قائلاً « قد سمعتم
ايها الاخوة بان الشيخ عباس قداقاه الامير امين الشهابي
سيداً على هذه القرية . وسمعتهم ايضاً بان الامير قداقاه

الملك حاكماً على هذا الجبل فهل سمعتم او رأيتم القوة التي
 اقامت الملك حاكماً على هذا الجبل فهل سمعتم او رأيتم
 القوة التي اقامت الملك رباً على هذه البلاد ؟ انتم لاترون
 تلك القوة متجسدة ولا تسمعونها متكلمة ولكنكم تشعرون
 بوجودها في اعماق ارواحكم وتسجدون امامها . صليين
 مبتهلين وتنادونها بقولكم (ابانا الذي في السماوات) . نعم
 ان اباكم السماوي هو الذي يقيم الملوك والامراء وهو القادر
 على كل شيء . ولكن هل تعتقدون بان اباكم الذي
 احبكم وعلمكم سبل الحق بواسطة انبيائه يريد ان تكونوا
 مظلومين ومرذولين ؟ هل تعتقدون بان الله الذي ينزل
 السحاب مطراً ويستنبت البزور زرعاً وينمي الزهور اثماراً
 يريد ان تكونوا جوعاً محتقرين لكي يمتي واحد بينكم
 منتفخاً متلذذاً ؟ هل تعتقدون بان الروح السرمدى الذي
 يوحي اليكم محبة الزوجة والرافة بالبنين والشفقة على
 القريب يقيم عليكم سيداً قاسياً يظلمكم ويستعبد ايامكم ؟
 هل تعتقدون بان النواميس الازلية التي تحبب اليكم نور

الحياة تبعث اليكم بمن يحبب اليكم ظلمة الموت . هل تعتقدون
 بان الطبيعه قد بعثت القوى في اجسادكم لكي تعود وتخضعها امام الضعف
 انتم لا تعتقدون بهذه الاشياء لانكم ان فعلتم تكونون كافرين
 بالعدل الالهي جا حدين نور الحق الذي يضيء على جميع الناس .
 اذاً اي شيء يجعلكم ان تساعدوا الشرور على نفوسكم . ولماذا
 تخائفون مشيئة الله الذي بعثكم احراراً الى هذا العالم وتصيرون
 عبيداً للمتحردين على ناموسة . كيف ترفعون اعينكم نحو الله القوي
 وتدعونه اباً ثم تخفون رقابكم امام الانسان الضعيف وتدعونه سيداً
 كيف يرضى ابناء الله ان يكونوا عبيداً للبشر . اما دعاكم يسوع
 اخوة فكيف يدعوكم الشيخ عباس خدماً . اما جعلكم يسوع احراراً
 بالروح والحق فكيف يجعلكم الامير عبيداً للخياف والفساد . اما رفع
 يسوع روهوسكم نحو السماء فكيف تخفضونها الى التراب . اما
 سكب يسوع النور في قلوبكم فكيف نغمرونها بالظلام . . . ان
 الله قد بعث ارواحكم الى هذه الحياة كشعالات مضيئة تنمو
 بالمعرفة وتزبد جمالاً باستطلاعها خفايا الايام والليالي فكيف
 تلحقونها بالرماد البعيد وتنطفئ . . ان الله قد وهب نفوسكم اجنحة
 لتطير بها ساجدة في فضاء الحب والحرية فلماذا تجزونها بايديكم
 وتدبون كالحشرات على اديم الارض . ان الله قد وضع في

قلوبكم بزور السعادة فكيف تنزعونها وتطرحونها على الصخر
 لتلتقطها الغربان وتذريها الارباح . ان الله قد رزقكم البنين
 والبنات لكي تدر بوهم على سبل الحق وتعلموا صدورهم باغاني الكيان
 وتتركوا لهم غبطة الحياة ارضاً ثمناً فكيف تهجعون وتخلفونهم
 امواتاً بين ايدي الدهر غرباء في ارض مولدهم نساء امام وجه
 الشمس . اوليس الوالد الذي يترك ابنه الحر عبداً يكون كالوالد
 الذي يساله ابنه خبزاً فيعطيه حجراً . اما رايتم عصفير الحقل تدرب
 فراخها على الطيران فكيف تعلمون صغاركم جر القيود والسلاسل
 اما رايتم زهور الاودية تستودع بزورها حرارة الشمس فكيف
 تعلمون اطفالكم الى الظلمة الباردة »

وسكت خليل هنيهة كان افكاره وعواطفه قد تمت واتسعت
 فلم تعد ترتدي الالفاظ ثوباً ثم قال بصوت يخفض « ان الكلام
 الذي سمعتموه مني في هذه الليلة هو الكلام الذي طردني الربان
 من اجله . والروح التي شعرتم بتوجاتها في قلوبكم هي الروح التي
 اوقفتني مكتوفاً امامكم . فان وثب علي سيد حقولكم وكاهن
 كنيسةكم وصرعاني اموت سعيداً فرحاً لانني باظهارى لكم
 حقيقة ما يحسبه الظالمون جرماً هائلاً قد تمت مشيئة باري »
 وباريكم»

كان خليل يتكلم وفي صوته الجهوري نغمة سحرية تضرب
لها قلوب الرجال الناظرين اليه باعجاب يشابه استغراب الاعمى
اذاما ابصر فجأة وتمتاز لحلاوتها نفوس النساء المخدقات به باعين
طالحة بالدموع . اما الشيخ عباس والخوري الياس فكانا يرتجفان
غضباً ويتلو بيان كالمطروحين على وسائل من الاشواك وقد حاول
كل منهما ان يوقف الشاب عن الكلام فلم يستطع لانه كان
يخاطب الجمع بقوة علوية تشابه العاصفة بعزمها والنسيم برقتها
ولما انتهى خليل من كلامه وقد تراجع قليلاً الى الوراء
ووقف بجانب راحيل ومريم حدث سكوت عميق كان روحه
المرفرفة في جوانب تلك القاعة الوسيعة قد حوت بصائر القرويين
نحو مكان قصي وانزعت الفكر والارادة من نفسي الشيخ والكاهن
واوقفتها مرتعشين امام اشباح ضميريهما المزعجة
حينئذ وقف الشيخ عباس وقد تقلصت ملائحه واصفر وجهه
وانتهر الرجال الوائنين حوله قائلاً بصوت مخنوق « ما اصابكم
ايها الكلاب . هل سمعت قلوبكم وجمدت الحياة في داخل
اجسادكم فلم تعودوا قادرين على تمزيق هذا الكافر الممزار . .
هل اكتبنت روح هذا الشيطان ارا واحكم وكتبت بسحره الجهنمي
سواعدكم فلم تستطيعوا ابادته »

قال هذه الكلمات وامتشق سيفاً كان يجانبه وهجم على الفتي المكتوف ليوقع به فتقدم رجل قوي البنية من بين الشعب واعترضه قائلاً بهدوء « اعمد سيفك ياسيدي لان من ياخذ بالسيف بالسيف يهلك »

فارتعش الشيخ عباس وسقط السيف من يده وصرخ قائلاً « هل يعترض الخادم الضعيف سيده وولي نعمته »

فاجابه الرجل « الخادم الامين لا يشارك سيده بالشرور والمظالم . ان هذا الشاب لم يقل غير الحق ولم يعلن لهؤلاء السامعين سوى الحقيقة »

وتقدم رجل اخر وقال لم يقل هذا الفتي شيئاً يستوجب الحكم فلماذا تضطهده !

ورفعت امرأة صوتها وقالت « لم يقذف بالدين ولم يجدف على اسم الله فلماذا تدعوه كافراً »

فتسجمت راحيل اذ ذلك وتقدمت الى الامام وقالت « ان هذا الشاب يتكلم بالسنتنا ويتظلم عنا ومن يريد به شرّاً يكون عدوّاً لنا »

فقال الشيخ عباس صارفاً اسنانه (وانت تتردين ايضاً ايتها الارملة الساقطة . هل نسيت ما اصاب زوجك عندما ترمد علي

منذ خمس سنوات)

فشهقت راحيل عندما سمعت هذه الكلمات وارتعشت متوجعة
 كمن ادرك مرًا هائلًا . والتفتت نحو الجمع وصرخت باعلى صوتها :
 (هل سمعتم القاتل يعترف بجريمته لي ساعة غضبه الا تذكرون
 بان زوجي قد وُجد قتيلا في الحقل وقد بحتتم عن القاتل فلم
 تجدوه لانه كان مخبئًا وراء هذه الجدران . الا تذكرون بان
 زوجي كان رجلا شجاعًا . اما سمعتموه مقلما عن مكاره الشيخ
 عباس منددا باعماله متمردا على قساوته . ها قد ابانت السماء قاتل
 جاركم واخيكم واوقفته امامكم فانظروا اليه واقراوا جريمته مكتوبة
 على وجهه المصفر . انظروه مقلما جازعا . تاملوا كيف قد ستر
 وجهه بيديه كيلا يرى عيونكم محدقة به . انظروا السيد القوي
 مرتجفا كالقصبه المروضه انظروا الجبار العظيم مرتاعا امامكم
 كالعبد الخاطيء . ان الله قد اراكم على حين غفلة خفايا هذا القاتل
 الذي تخافونه وابان لكم النفس الشريرة التي جعلتني ارملة بين
 نسائكم وتركت ابنتي يتيمة بين ابنائكم)

وبينا راحيل تُنكلم صارخة والفاظها تنقض كالصواعق تلي
 راس الشيخ عباس وخجيج الرجال وزفرات النساء نتموج كشمعات
 النار والكبريت حول دماغه وقف الكاهن واخذ بساعده واجاسه

على المقعد ثم نادى الخدام بصوت مرتجف قائلاً « اقبضوا على هذه
الامراة التي اتهم سيدكم زوراً وجروها مع هذا الشاب الكافر الى
غرفة مظلمة . ومن يمرضكم يكون شريكاً لهما بالجريمة محروماً
نظيرهما من الكنيسة المقدسة »

فلم يتحرك الخدام من اماكنهم ولم يحفلوا باوامر الكاهن بل
لبثوا جامدين همدقين بخنايل المكتوف وراحيل ومريم الواقفتين
عن يمينه وشماله كأنهما جناحان قد فتحهما ليطيروا ويحلق بهما في السحاب
فقال الكاهن وحيته تراقص حنقاً (هل تكفرون بنعمة
سيدكم ايها الاجلاف وتجدون فضله وتذكرونه من اجل فتى
مجرم كافر وامراة عاهرة كاذبة)

فاجابه اكبر الخدام سنأ وقال (قد خدمنا الشيخ عباس
انفاء للخبز والمأوى ولكننا لم نكن له عبيداً قط) قال هذا ونزع
عباءته وكوفيته وطرحتها امام الشيخ عباس وزاد قائلاً « لا اريد
ان انعم جسدي بهذه الملابس الحقيرة كيما تبقى نفسي متعذبة في
منزل سفاك الدماء »

ففعل الخدام كافة نظيره وانضوا الى الجمع وعلى وجوههم
سبأ الانعتاق والحرية
فلما راى الخوري الياس ما فعلوه وقد شعر بان سلطته

الكاذبة قد نضععت خرج من ذلك المنزل مجدفاً على الساعة
التي انت بخليل الى تلك القرية

حينئذ تقدم رجل من بين الجمع وحل وناق خليل ونظر الى
الشيخ عياس المرتضى على كرسية كجثة هامدة و يلهجة مملوءة بالعزم
والارادة خاطبه قائلاً (ان الشاب الذي احضرته مكتوفاً لكي
تحاكمه كمجرم اثم قد انار قلوبنا المظلمة وحول بعائرتنا نحو سبل
الحق والمعرفة . والارملة البائسة التي دعوتها عاهرة كاذبة قد
ابانت لنا السر الهائل الذي ظل مكتوماً . اعوام . اما نحن فقد
ترأصنا مسرعين الى هذه الدار لنشترك بدنونة البريء واضطهاد
العادل . والان وقد انفتحت اعيننا واعترتنا السماء جر يمتك المخيفة
ومظالمك القاسية فغادرك منفردا ولا ندينك . ونهملك ولا نشكوك
ونبتعد عنك طالين من السماء ان تفعل مشيئتها بك)

وارتفعت اذ ذاك اصوات الرجال والنساء في تلك القاعة
الوسيعة فكان هذا يقول : هلموا نخرج من هذا المكان المشحون
بالاثام والمعاصي ونذهب الى بيوتنا . وذا يصرخ : تعالوا نتبع الشاب
الى بيت راحيل ونسمع حكمته المعزية واقواله العذبة . وذاك
يهتف : لنفعلن ارادة خليل فهو اعلم بيجاجاتنا وادرى منا بمطالبنا ،
وغيره يقول : ان كنا نريد العدل والانصاف فلنذهب غدا الى

الامير امين ونخبه بجرائم الشيخ عباس ونطلب اليه ان يعاقبه .
 واخر يصح يجب ان نستعطف الامير وزجوه ان يقيم خليلاً ممثلاً
 له في هذه القرية . وغيره بقول يجب ان نشكو الخوري الياس
 الى الاسقف لانه يشارك الشيخ بجميع اعماله

وبينما هذه الاضواء نتصاعد من كل ناحية وتهبط كالسهام
 الحادة على صدر الشيخ الخفوق رفع خليل يده واسكت الجمع باشارة
 ثم ناداهم قائلاً (اسمعوا وتبصروا ايها الاخوة ولا تكونوا متسرعين
 انا اطلب اليكم باسم محبتي الا تذهبوا الى الامير فهو لا ينصفكم
 من الشيخ لان الكوامر لا تنهش بعضها البعض ولا تشكوا الكاهن
 الى رئيسه لان الرئيس يعلم ان البيت الذي ينقسم على ذاته يخرب
 ولا تطلبوا ان اكون ممثلاً للحاكم في هذه القرية لان الخادم الامين
 لا يريد ان اكون عوناً للسيد الشرير . ان كنت خليقاً بجمعكم
 وانعطافكم دعوني اعيش بينكم وشارككم بافراح الحياة واحزانها
 واشاطركم العمل في الحقول والراحة في المنازل لانني ان لم اكن
 كواحد منكم اكون كالمرائيين الذين يكرزون بالفضيلة ولا يفعلون
 غير الشر . والان وقد وضعت الفاس على اصل الشجرة تعالوا نذهب
 تاركين الشيخ عباس واقفاً في محكمة ضميره امام عرش الله الذي
 يشرق شمس على الابرار والاشرار)

قال هذا وخرج من ذلك المكان فاتبعه الجمع كان في شخصه
 قوة تحول نحوها الا بصار كيفما تجوات . و بقي الشيخ منفردا كالبرج
 المهديم متوجعا كالفائد المغلوب . ولما بلغ الجمع صاحة الكنيسة وكان
 القمر قد طلع من وراء الشفق وسكب اشعته الفخية في السماء
 التفت خليل وراى اوجه الرجال والنساء متجهة نحوه كلخرف الناظرة
 الى راعيا فتحركت روحة في داخله كانه وجد في اولئك القرويين
 المساكين رمز الشعوب المظلومة وشاهد في تلك الاكواخ الحقيمة
 المكتتفة بالثلوج المتجلدة رمز البلاد المغدورة بالذل والهوان فوقف
 وقفة نبي يسمع صراخ الاجيال وتغيرت ملامحه واتسعت عيناه كان
 نفسه قد ابصرت جميع امم المشرق سائرة تجر قيود العبودية في
 تلك الاودية فرفع كفيه نحو العلاء وبصوت يشابه ضجيج الامواج
 صرخ قائلا

« من اعماق هذه الاعماق نناديك ايها الحريرة فاسمعينا
 من جوانب هذه الظامة نرفع اكفنا نحوك فانظريتنا . وعلى
 هذه الثلوج نسجد امامك فارحمينا . امام عرشك الرهيب
 تقف الان ناشرين على اجسادنا اثواب ابائنا الملطخة
 بدمائهم عافرين شعورنا بتراب القبور المزوج بقاياهم .

حاملين السيوف التي اغمدت باكبادهم . رافعين الرماح التي
 خرقت صدورهم . ساحبين القيود التي ابادت اقدامهم .
 صارخين الصراخ الذي جرح حناجرهم نائحين النواح الذي
 ملاً ظلمة سجونهم مصلين الصلاة التي انبثقت من اوجاع
 قلوبهم فاصغى ايتها الحرّية واسمعينا . . من منبع النيل
 الى مصب الفرات يتصاعد نحوك عويل النفوس متموجاً
 مع صراخ الهاوية . ومن اطراف الجزيرة الى جبهة لبنان
 تمتد اليك الايدي مرتعشة بنزاع الموت . ومن شاطئ
 الخليج الى اذيال الصحراء ترتفع نحوك الاعين مغمورة
 بنوبان الافئدة فالتفتي ايتها الحرّية وانظرينا . . في زوايا
 الاكواخ القائمة في ظلال الفقر والهوان تفرع امامك الصدور
 وفي خلايا البيوت الجالسة في ظلمة الجهل والغباوة تطرح
 لديك القلوب وفي قراني المنازل المحجوبة بضباب الجور
 والاستبداد تمنئ اليك الارواح فانظري ايتها الحرّية
 وارحمينا . . في المدارس والمكاتب تناجيك الشبيبة اليائسة
 وفي الكناس والجوامع يستميلك الكتاب المتروك . وفي

المحاكم والمجالس تستغيث بك الشريعة المهمة فاشفقي
 ايتها الحرّية وخلصينا . . في شوارعنا الضيقة يبيع التاجر
 ايامه ليعطي اثمانها الى لصوص المغرب ولا من ينصحه
 وفي حقولنا المجدبة يحفر الفلاح الارض باظافره ويزرعها
 حبات قلبه ويسقيها دموعه ولا يستغل غير الاشواك ولا
 من يعلمه . وفي سهولنا الجرداء يسير البدوي عارياً حافياً
 جائعاً ولا من يترأف عليه فتكلمي ايتها الحرّية وعامينا
 « ناعجنا ترتعي الاشواك والحسك بدلاً من الزهور
 والاعشاب . وعجواننا تقضم اصول الاشجار بدلاً من
 الذرة . وخبولنا تلتهم المشيم بدلاً من الشعير فهلمي
 ايتها الحرّية واتخذينا —

« منذ البدء وظلام الليل يخيم على ارواحنا فاي متي
 يجيء الفجر . من الجبوس الى الجبوس تتنقل اجسادنا
 والاجيال تمر بنا ساخرة فالى متي نحتمل سخريّة الاجيال
 ومن نير ثقيل الى نير اثقل تذهب اعناقنا وامم الارض
 تنظر من بعيد ضاحكة منا فالى م نصبر على ضحك الامم

ومن القيود الى القيود تسير ركبنا فلا القيود تفنى ولا
نحن ننقرض فالى متى نحى —

« من عبودية المصريين الى سبي بابل الى قساوة
الفرس الى خدمة الاغريقين الى استبداد الروم الى مظالم
المغول الى مطاعم الانكليز فالى اين نحن سائرون الان
واي متى نبلغ جبهة العقبة —

« من مقابض فرعون الى مخالب نبوختنصر الى اظافر
الاسكندر الى اسياف هيروودس الى براثن نيرون الى
اياتب الشيطان فالى يد من نحن ذاهبون الآن واي متى
نبلغ قبضة الموت فنرتاح من سكينه العدم —

« بعزم سواعدنا قد رفعوا اعمدة الهياكل والمعابد لمجد
الهتمم . وعلى ظهورنا قد ثقلوا الطين والحجارة لبناء الاسوار
والبروج لتعزير حماهم . وبقوى اجسادنا قد اقاموا الالهرام
لتخليد اسمائهم . فحتى متى نبني القصور والصروح ولا
نسكن غير الاكواخ والكهوف . ونملأ الالهرا والخزائن
ولا نأكل غير الثوم والكراث . ونحوك الحرير والصوف

ولا نلبس غير المسوح والاطمار -

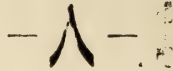
» نجبشهم واحتياهم قد فرقوا بين العشيرة والعشيرة
وابعدوا الطائفة عن الطائفة وبنضوا القبيلة بالقبيلة فحتى
متى تنبذ كالرماد امام هذه الزوبعة القاسية وتتصارع
كالاشبال الجامعة بقرب هذه الجيفة المنتنة -

« لحفظ عروشهم وطمانينة قلوبهم قد سلحوا الدرزي
لمقاتلة العربي . وحمسوا الشيعي لمصارعة السني . ونشطوا
الكردي لذبح البدوي . وشجموه الاحمدي لمنازعة المسيحي
فحتى متى يصرع الاخ اخاه على صدر الام والى متى
يتواعد الجار جاره بجانب قبر الحبيبة والى م يتواعد
الصليب عن الهلال امام عين الله -

» اصغي ايتها الحرية واسمعينا . التفتي يا أم ساكني
الارض وانظرينا فنحن لسنا ابناء ضرتك . تكلمي بلسان
فرد واحد منا فمن شرارة واحدة يشتعل القش اليابس .
ايقظي بمخيف اجنحتك روح رجل من رجالنا فمن سحابة
واحدة ينبثق البرق وينير بلحظة خلايا الاودية وقمم الجبال

بددي بعزمك هذه النجوم السوداء وانزلي كالصاعقة واهدي
 كالمنجنيق قوائم العروش المرفوعة على العظام والجاجم .
 المصفحة بذهب الجزية والرشوة المغمورة بالدماء والدموع
 ،، اسمعينا ايها الحرية . ارحمينا يا ابنة اثينا . اتقدينا
 يا اخت رومة . خلصينا يا رفيقة موسى . اصفينا يا حبيبة
 اشعيا . علمينا يا عروسة يوحنا . قوي قلوبنا لنحيي او
 شددني سواعد اعدائنا علينا فنغني وننقرض ونرتاح “
 كان خليل يناجي السماء وعيون الفلاحين محدقة به
 وعواظهم تنسكب مع نعمة صوته ونفوسهم تتطأير مع
 انفاسه وصدورهم تخفق بنبضات قلبه فكأنه اصبح منهم
 في تلك الساعة بمنزلة الروح من الجسد . ولما انتهى من
 مناجاته التفت نحوهم وقال بهدوء ،، قد جمعنا هذا الليل
 في منزل الشيخ عباس لكي نرى نور النهار واوقفنا المظالم
 امام هذا الفضاء البارد لكي نتفاهم وننضم كالغراخ تحت
 جناحي الروح الخالدة . فليذهب الآن كل منا الى فراشه
 لنبام مترقباً لقاء اخيه في الصباح “

قال هذا ومشى متبعاً خطوات راحيل ومريم الى
 كوخهما . فتفرق اذ ذاك الجم وذهب كل الى بيته مفكراً
 بما سمعه وراه شاعراً بلامس حياة جديدة في داخل نفسه
 ولم تمر ساعة حتى انطفأت السرج في الاكوخ والقت
 السكينة وشاحها على تلك القرية وحمات الاحلام ارواح
 الفلاحين تاركة روح الشيخ عباس ساهرة مع اشباح
 الليل مرتعدة امام ذنوبه متعذبة بين انياب هواجسه



مرّ شهران وخليل يسكب سرائر روحه في قلوب
 اولئك القرويين محدثاً اياهم في كل يوم عن غوامض
 حقوقهم وواجباتهم مصوراً لبصائرهم حياة الرهبان الطامعين
 مردداً على مسامعهم اخبار الحكام القساة جاعلاً بين
 عواطفهم وعواطفهم صلة قوية شبيهة بالنواميس الازلية التي
 تقيد الاجرام بعضها . فكانوا يصفون اليه بفرج يضارع
 بهجة الحقول الظمانية بانهطال الامطار ويرددون كلامه في
 خلوتهم ملبسين نسمات مقاصده اجساداً من محبتهم غير

حافلين بالخوري الياس الذي اصبح يتزلف اليهم منذ ظهور
جريمة حليفه الشيخ ويقرب منهم لينا كالشمع بعد ان كان
صلباً كالرخام

اما الشيخ عباس فقد اصيب بعله في نفسه شبيهة
بالجنون فكان يسير ذهاباً واياباً في رواق منزله كالنمر
المسجون وينادي خدامه باعلى صوته فلا يجيبه غير الجدران
ويصرخ مستنجداً برجاله فلا يأتي لمعونه غير زوجته المسكينة
التي عانت من خشونة طباعه ما قاساه الفلاحون من مظالمه
واستبداده . ولما جاءت ايام الصوم واعلنت السماء قدوم
الربيع انقضت ايام الشيخ بانقضاء زوابع الشتاء فمات بعد
بنزاع موجع مخيف وذهبت روحه محمولة على بساط اعماله
لتقف عارية امام ذلك العرش الذي نشعر بوجوده ولا
نراه وقد اختلفت اراء الفلاحين في سبب موته فكان
بعضهم يقول قد اختلف شعوره فقضى مجنوناً وبعضهم
يقول قد سسم اليأس حياته عندما زالت سطوته فمات منتحراً
اما النساء اللواتي ذهبن لتعزية زوجته فأخبرن رجالهن

بانه مات خائفا مرتاعا لان شبح سمعان الرامي كان يظهر له مرتدياً اثواباً ملطخة بالدماء ويقوده كرهاً عندما ينتصف الليل الى المكان الذي وجد فيه مصروعاً منذ ٥ اعوام

.

واعلنت ايام نيسان لسكان تلك القرية سرائرالحب الحفية الكائنة بين روح خليل وروح مريم ابنة راحيل فهلت وجوههم فرحاً ورقصت قلوبهم ابتهاجاً ولم يعودوا يخشون ذهاب الشاب الذي ايقظ قلوبهم الى محيط اوسع وارقي من وسطهم . فطافوا يبشرون بعضهم بعضاً بسيرورته جاراً قريباً وصهراً محبوباً لكل واحد منهم

ولما جاءت ايام الحصاد خرج الفلاحون الى الحقول وجمعوا الاغمار على البيادر ولم يكن الشيخ عباس هناك ليقتصب الغلة ويحملها الى اهراته ومخازنه بل كان كل من الملاحين يستغل الحقل الذي فلقه وزرعه فامتلات تلك الاكواخ من القمح والذرة والخمر والزيت

اما خليل فكان يشاطرهم الاتعاب والامرات ويساعدهم بجمع الغلة وعصر العنب واجتناء الثمار . ولم

يمكن يميز نفسه عن الواحد منهم الا بمحبته ونشاطه
 منذ تلك السنة الى ايامنا هذه اصبح كل فلاح في
 تلك القرية يستغل بالفرح الحقل الذي زرعه بالانعام
 ويجمع بالمسرة اثمار البستان الذي غرسه بالمشقة . فصارت
 الارض ملكاً لمن يفلحها والكروم نصيباً لمن ينقبها ويحرسها
 والان قد اتقضى نصف قرن على هذه الحادثة .
 وراودت اليقظة اجفان اللبنانيين . يمر المسافر على طريقه
 الى غابة الارز ويقف متاملاً بمحاسن تلك القرية الجليلة
 كالعروس على كتف الوادي فيرى اكوخها قد صارت
 بيوتاً جميلة مكتنفة بالحقول الخصبة والحدايق الناضرة . وان
 سأل احد سكانها عن تاريخ الشيخ عباس يجيبه مشيراً
 نحو حجارة منقوذة وجدران مهدومة واعمدة مرتمة قائلاً
 ,, هذا قصر الشيخ عباس وهذا هو تاريخ حياته “ .
 وان سألته عن خليل يرفع يده الى السماء قائلاً ,, هناك
 يسكن خليلنا الصالح اما تاريخ حياته فقد كتبه اباؤنا
 باحرف من شعاع على صفحات قلوبنا فلن تمحوه الايام
 والليالي “

